﴿ اسباب ﴾

الانقلاب العثماني
وتركيا الفتاة

اصدق تاريخ
لاعظم انقلاب

﴿ تأليف ﴾

الكاتب السياسي والاديب الالمعي
(محمد روحي بك الخالدي)
عضو القدس الشريف في مجلس النواب (المبعوثان) العثماني

﴿ عني بتصحيحها ﴾

السيد حسين وصفي رضا

بنفقة مكتبة المنار وحقوق الطبع محفوظة لها

طبعت في مطبعة المنار بشارع درب الجماميز بمصر سنة ١٣٢٦هـ
1908م

بسم الله الرحمن الرحيم

(وشاورهم في الامر)
(وامرهم شورى بينهم)

« القرآن الحكيم »

كانت الدولة العثمانية منذ أسسها السلطان عثمان ذلك الرجل المدبر العصامي ، الى نهاية أيام السلطان عبد المجيد العاقل الابي ، - دولة حربية بحتة ، شادت بناء عظمتها على أسس الاقدام والشجاعة والغلب ، فلم يمض زمن كبير حتى اصبحت من الدول ذوات البأس اللائي يتقى غضبهن ، وتخطب مودتهن ، فأمعنت في الفتوحات ، واسترسلت في الغزوات ، وقلما كانت ترجع من غزوة إلا و بنود الفلج تخفق فوق رأسها ، ورايات الظفر تمايل في أيدي رجالها الكماة

صلفا وفخرا، فعز مكانها، وتطاول بنيانها، واتسع ملكها حتى تغلغلت في أحشاء اوربا، بعد أن استحوذت على آسيا الصغرى وجزء كبير من افريقيا.

كانت سريعة الخطى في هـذه السبيل فسادت وشادت، وبنت على أطلال الدولة السلجوقية دولة عظيمة قوية، وما كان العظم في تلك العصور التي يسمونها العصور المظلمة الا بقوة المراس، وثبات الجاش، والنشوء بين صليل السيوف، ومزاحف الصفوف.

أخذ بعضدها فاتح القسطنطينية وكان تقيا صالحا فأناف بها على اليفاع، وتوقل بها سني المراتب، ناهيك بمالك القسطنطينية اذا كان خيرا عادلا، وما زالت تتدرج في منازل العظمة، ومواطن السؤدد، حتى كانت ايام السلطان سليمان القانوني، وفيها بلغت آخر مدى ووقفت عند منتهى الغاي، وهو صاحب الفضل في جعلها حكومة نظامية قانونية، بعد ان كانت تجري على تقاليد محفوظة، لاغناء بها، ولا

نظام لها ، ومن ذلك الحين دب الضعف في جسمها وكان
اهمال أولي الامر وجهلهم وسومهم الرعية سوء العذاب
مساعدا على نماء الضعف ، وسريانه في جسم الدولة ، الى
أن تولى السلطان محمود الثاني ذلك المحب للاصلاح ،
والدولة على شفا جرف هار ينذرها بالاضمحلال والفناء ،
الفاها وقد فقدت تلك القوة التي كانت تباهي بها ، ولم
تضرب بسهم في العلم الذي اصبح السلاح القاطع والقوة
الكبرى في ذلك الحين وهذا الحين ، فقوّم منآدها بما في
وسعه ، واصلح فاسدها بما في طوقه ، ومما يذكر له بالثناء
عليه تنكيله بالانكشارية الذين كان زمام الملك في يدهم لذلك
العهد ، وكانوا من اشد العوامل في افساد الدولة وإضعافها

ثم تولى الملك السلطان عبد المجيد والدولة في قلاقل
داخلية ، ومشكلات خارجية ، تضعف الرجاء في إقالتها من
عثرتها ، وانهاضها من كبوتها ، بَلْه ارجاعها الى سابق عزها ،
وسالف مجدها ، فأخذ بضبعها ، وحدد للحكومة وظائفها ،

و بيّن للرعية حقوقها ، ويكفيه فخرا انه هو الواضع لخط « كلخانه » المعروف

لم يكد عبد المجيد يوارى في رمسه حتى قام السلطان عبد العزيز وهو الذي زُيّن له حب الشهوات ، وأولع بحب السيطرة ، واشرب قلبه القسوة ، ينكث فتل سلفه، ويصدع رأب سابقه ، وكان عونا له على هذا التخريب وزيره محمود نديم باشا ، حبيب (اغناتيف) السفير الروسي في ذلك العهد ، ومنفذ غايه ومقاصده

ثم جلس على سرير الملك السلطان عبد الحميد الثاني ، بعد ان تولى الملك السلطان مراد مدة لم تتجاوز ثلاثة وتسعين يوما ، ولم يكد يستقر على السرير حتى أحاط به جمهور من الاحرار ، وزينوا له ان يسير على سَنن أوربا ، فتكون حكومته دستورية حرة ، وكان مدحت باشا هو الرأس المدبر لهذه الحركة ، واليد العاملة فيها ، ولم تكد تقر عيونهم بتحقيق الرغبة ، حتى فوجئوا بالنفي

والابعاد ، وإلقائهم في غيابة السجون ، وإغراقهم في لجج البوسفور !!!

ابتدأت المظالم منذ ذلك الحين تحارب الامة في جميع مقومات الحياة ، والتف حول السلطان فريق من الجواسيس « يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية » فطفقوا يرضون المخلوق بما يسخط الخالق ، وافترعوا ضروبا من الظلم ، وافانين من الارهاق والتضييق ، كانوا يصولون بها على الامة صيال الوحوش الضارية ، والطيور الكاسرة ذوات المخالب ، وامتد بهم الافساد إلى ان سلطوا بعض رجال الامة على بعض ، ففتوا في عضدها ، وافسدوا أخلاقها ، حتى بات الابن يخشى ان يأتيه الضر من قِبَل أبيه ، والأخ يتوقع ان يحيق به البلاء من ناحية أخيه ، وكان العلم أخوف ما يخافونه ، فنكلوا برجاله شر تنكيل ، ففر منهم من أفلت من ظلمهم إلى أوربا وأمريكا ومصر .

كان الاحرار في غضون هذه الملمات والكوارث النازلة بأمتهم قد اجمعوا أمرهم سراً وانشأوا الجمعيات السياسية في بلاد الحرية التي تبوأوها ، ونشروا الجرائد والكتب والرسائل ، وكلها تنديد بالحال الحاضرة ، وغلا في ذلك قوم واستخذى آخرون ، حتى قام فريق من الشبان في الاستانة — ومعظمهم من طلاب المدرسة الطبية والمتخرجين فيها — فأسسوا جمعية الاتحاد والترقي منذ ثماني عشرة سنة ، ثم نمت وعظمت بعد ذلك ، وانتظم في سلكها كثيرون من كبار الاحرار وخيار العقلاء . وقد كان لرجالها تكتم غريب ، وتحفظ شديد ، وحزم عظيم ، كانت بدايته السلامة من صولة الجواسيس ، ونهايته ذلك الفوز الكبير والنصر المبين ، إذ قاموا بقلب أعرق حكومة في الاستبداد إلى حكومة دستورية حرة ، من دون ان تراق في سبيل ذلك نقطة دم ، مع ان المسطور في التواريخ ان مثل هذا الانقلاب لم تصل أمة إلى

ساحله إلا بعد خوضها في بحر لجي من الدم ،

لم تكن دهشة الامة العثمانية واعجابها بهذا الانقلاب بأكثر من دهشة سائر الامم الاخرى ، فقد تجاوزت صيحات (نيازي) و (أنور) بلاد الدولة العلية الى مدن أوربا وغيرها فالتفتت مذعورة حائرة من هذا المصير العجيب الذي ما كان يخطر لها ببال ، ولا يزال الناس فيها وفي غيرها من بلاد الدنيا معجبين بهذا الانقلاب الذي لم يعِ التاريخ في صدره له ضريعا ، حائرين في اسبابه ومقدماته ، حتى قام اليوم الكاتب السياسي ، والاديب الالمعي ، صديقنا محمد روحي بك الخالدي ، عضو القدس الشريف في مجلس النواب العثماني — بتأليف رسالة جليلة في هذا الموضوع ، اماط فيها اللثام عن الاسباب المجهولة ، والحقائق المخدرة ، وقد بحث فيها بحثا فلسفيا في أصل الاستبداد ونشوءه ، وشكل الحكومة العثمانية في بدء تأسيسها ، و بيان تقاليدها الموروثة ونظاماتها المكتسبة ، وشيوع الخلل في ادارة الدولة واستبداد أولي

الامر فيها ، مما أدى بها الى شر حالة ، وكان سببا في قيام الاحرار ومطالبتهم بالاصلاح ، وأفاض القول في شؤون الاحرار وتاريخ ظهورهم ، وبيان الطرق التي سلكوها ليصلوا الى مقاصدهم ، مع تراجم لمشهوريهم .

جال المؤلف في ذلك جولة المؤرخ الواقف على الحقائق ، واستنتج من الحوادث التي سردها ان الانقلاب هو النتيجة التي لابد منها لتلك المقدمات التي سبقته ، فكان ما كتبه جديرا بأن يكون رائدا لمن يأنس في نفسه شغفا الى استكناه تلك الغوامض التي ادهشت العالم ، وقلبت كيان السياسة ، وأي قارئ ليس شغوفا بذلك ؟

نشرت الرسالة في مجلة (المنار) فكانت موضع استحسان العلماء العقلاء ، والكتاب الابيناء ، وكان بدا لي ان استأذن مؤلفها في طبعها على حدة لتكون كتابا مستقلا تلذ مطالعته ، وتسهل مراجعته ، فكتبت اليه راغبا في ذلك ، فرجع القول مليبا الطلب ؛ سامحا بتنقيح مالا تسلم منه كتابة

المتسرع ، ولا سيما اذا كان كمؤلفنا لم يُتح له ان يعيد النظر على ما كتب ،

واني أزفها اليوم الى الناطقين بالضاد مطبوعة طبعا صحيحا نظيفا ، رجاء ان يستفيدوا من تحقيق مؤلفها ، ويقفوا على أسباب ذلك الانقلاب العجيب . وخليق بأهل هذا القطر الذين شغفوا بالدستور وقد ضلوا طريقه ، ولم يهتدوا الى بابه ، ان يمعنوا في معانيها ، ويتبينوا مراميها ، عسى أن يتأسوا بأولئك الاحرار ، ويكونوا من خير المحتذين لهم في هذه الديار

القاهرة في سلخ ذي القعدة سنة ١٣٢٦

حسين وصفي رضا

الانقلاب العثماني

« وتركيا الفتاة »

***

﴿ الفرق بين الانقلاب والثورة ﴾

الانقلاب في إصطلاح المورخين تغيير مهم في حكومة الدولة وقلب في قوانينها ، وهو غير الثورة التي بمعنى العصيان والخروج عن الطاعة والقيام على الحكومة المشروعة ، والفرق بين الانقلاب والثورة كبير ، فان الثورة كثيرا ما تضر بمنافع الامة ومصالحها وتصدها عن السير في طريق النجاح ، بخلاف الانقلاب فانه مهما آلم الامة ورضرضها فهو يخطو بها خطوة في نهج التقدم ، ويصعد بها درجة في سلم النجاح ، وأكثر كتاب العربية

لا يفرقون بين الكلمتين ، فيطلقون اسم الثورة على الانقلاب ، فيقولون الثورة الفرنسية مثلا ، بدل الانقلاب الفرنسي ، ولم يلتفتوا الى ما روي عن لويس السادس عشر ملك فرنسا لما أخبر بهدم قلعة الباستيل (la Bastille) واطلاق المسجونين فيها فقال : إذاً هذه ثورة (Révolte) فأجابه المخبر : عفوا يامولاي بل هذا انقلاب (Révolution)

فمراد ملك فرنسا ان فعل الثائرين غير مشروع ، ولا حق لخروجهم عن الطاعة ، وجواب المخبر ينافيه ، ويبين أن الانقلاب غير الثورة والعصيان ، فنحن اليوم أحوج إلى تعيين معاني الكلمات والى وضع قوالب الالفاظ على قدر المعاني ، لان الانقلاب السياسي من شأنه ان يحدث انقلابا في اللغة والادب ، فضلا عن انقلاب الاخلاق والعادات والافكار ، الا ترى الجرائد العثمانية على اختلاف لغاتها من تركية وعربية ورومية

وأرمنية ويهودية (أسبانية وعبرانية) و بلغارية وفرنسية والجرائد الالبانية والكردية على وشك الظهور — كيف بدلت لهجاتها بعد حدوث الانقلاب؛ وهجرت تلك الالفاظ الفخمة والتعبيرات السقيمة، التي تغطي المعاني بستار الإبهام حتى تستبهم على القارى، وتقيد فكره بسلاسل التذليل والاستعباد

***

﴿ الاستبداد يولد الانقلاب ﴾

ان الذي يولد الانقلاب هو الاستبداد، ومقتضاه التغلب والقهر اللذان هما من آثار الغضب والحيوانية، لا من قواعد الدين الاسلامي كما يتوهم بعضنا وأكثر الاوربيين الذين يصفون الحكومات الاسلامية بكونها ثيوقراطية أي انها جامعة بين الديانة والسياسة. واحكام المستبد أو المستبدين في الغالب جائرة عن

الحق ، مجحفة بمن تحت يدهم من الخلق ، لحملهم ايام على ما ليس في طوقهم من اغراض المستبد أو المستبدين وشهواتهم ، ولذا ورد في الخط الشريف السلطاني الذي اعطي به القانون الاساسي : « ان قوة الحكومة تحافظ على حقوقها المقبولة والمشروعة ، وعلى منع الحركات الغير مشروعة اعني بها منع ومحو الخطيئات وسوء الاستعمالات المتولدة من الحكم الاستبدادي الفردي أو الافراد القلائل ليستفيد جميع الاقوام المركبة هيئتنا منهم نعمة الحرية والعدالة والمساواة بلا استثناء ، وذلك حق ومنفعة حريّان بالهيئة الاجتماعية المدنية ... الخ »

***

﴿ الاستبداد والاسلام ﴾

الاستبداد هو منبع الشرور ، وسبب التأخر والانحطاط ، وقد ورث ملوك الاسلام هذا الاستبداد عن

أكاسرة الفرس وقياصرة الرومان ، عن نماردة بابل وفراعنة مصر ، عن جنكيز خان وتيمور لنك ، والاسلام أول شريعة اعترضت على الاستبداد وقاومته أشد المقاومة ، وساوت بين أفراد الامة ، وحافظت على الحقوق والحرية الشخصية ، وأمنت الاجانب المعاهدين - فضلا عن أفراد الامة - على أموالهم ودمائهم واعراضهم ، ومهدت السبيل للحكومة الديموقراطية ، ووضعت حق الحاكمية في الامة ، ولم تكتف باعطائها الحرية في القول والعمل والكتابة والاجتماع ، بل فرضت على كل فرد من أفرادها الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فجعلت الامة مسيطرة على الحقوق العامة ، ولم تفرق في الحقوق الخاصة بين المسلمين وخليفتهم ولا أولي الامر منهم ، ورد في الدرر وهو من أهم الكتب الشرعية «ان الخليفة يقتص منه ويؤخذ بالمال لانهما من حقوق العبد ، ويستوفيه ولي الحق اما بتمكينه أو بالاستعانة بمنعة المسلمين»

ولذا حكمت القضاة على أكثر من واحد من الخلفاء وسلاطين الاسلام برد المال وضمانه ، وأنزلتهم عن المنصة ، وأقعدتهم مع الخصم في مجلس الحكم

***

﴿ الاستبداد آسيوي لا اسلامي ﴾

كانت الحال على ما ذكر مدة الخلفاء الراشدين ، ومن اقتفى أثرهم كعمر بن عبد العزيز من بني أمية ، ثم تغلب الاستبداد الآسيوي على احكام الدين الاسلامي ، وانقلبت الخلافة الى سلطنة ، وأصبح خليفة الاسلام (مقدسا وغير مسؤل) كملوك الافرنج ليومنا هذا ، لا يقتص منهم ولا يؤخذون بالاموال ولا تستطيع المحاكم إحضارهم ولا إصدار الحكم عليهم ، ويرثون الملك كما يرث أحدنا مال أبيه . فاستبدوا بالامر استبداد لويس الرابع عشر الذي كان يقول «الدولة هي أنا» و «أموال

الرعية إنما هي ملك لملكها فاذا أخذ شيئا منها فقد أخذ حقه ! ! »، واستباحوا التصرف في نفوس الرعية وأموالهم واعراضهم، وفي خزائن الدولة و بيت المال وأوقاف المساجد والمؤسسات الخيرية ، وصار الوزراء والمصاحبون يقولون « خسرو بكند شيرينست » أي ما أعجب كسرى فهو حسن، فالحسن هو ما استحسنه السلطان والقبيح ما استقبحه السلطان ، ولا دخل في ذلك للعقل والذوق ، ولا للحكمة والشرع ،لانهم أولوا الشرع على حسب غاياتهم واغراضهم

فاذا تصفحت تواريخ الامم الاسلامية في الشرق والغرب تراها مؤسسة على هذا الاستبداد الآسيوي ، وعلى جانب من الاستعباد الافريقي ، وليس فيها شيء من الحرية الاسلامية ، ولا المشورة المأمور بها في الآيات القرآنية والاحاديث النبوية ، كما قال الله لنبيه : (٣ : ١٥٣ ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الامر ،

فاذا عزمت فتوكل على الله ، ان الله يحب المتوكلين) وقوله تعالى (٤٢ : ٢٦ وأمرهم شورى بينهم) وحديث « أنتم أعلم بأمور دنيا كم » وأمثاله كثيرة كحديث حلف الفضول المشهور في التواريخ . وذلك أن قبائل من قريش تداعت الى حلف الفضول الذي عقدته قديما قبائل العرب واشتهر باسم رؤسائهم الفضيل والمفضل ، فاجتمعت وجوه قريش في دار عبد الله بن جدعان لشرفه ونسبه ، فتحالفوا وتعاقدوا ان لا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها أو من غيرهم من سائر الناس الا قاموا معه ، وكانوا على ظلمه حتى ترد عليه مظلمته ، وكان ذلك قبل الاسلام ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لقد شهدت مع عمومتي حلفا في دار عبد الله بن جدعان ما أحب ان لي به حمر النعم ، ولو دعيت به في الاسلام لاجبت » فأي شيء أشبه بهذا الاجتماع والتعاقد من البرلمان والمبعوثان ؟ لا بل من جمعية الاتحاد والترقي ؟

ولقد أحسن جـدا العلامة المقري في جوابه المذكور في نفح الطيب حيث قال :

« سألني بعض الفقهاء عن السبب في سوء بخت المسلمين في ملوكهم ، اذ لم يلِ أمرهم من يسلك بهم الجادة ، ويحملهم على الواضحة ، بل من يغتر في مصلحة دنياه ، غافلا عن عاقبة أخراه ، فلا يرقب في مؤمن إلا ولا ذمة ، ولا يراعي عهدا ولا حرمة !

« فأجبته: بأن ذلك لأن الملك ليس في شريعتنا ، وذلك انه كان فيمن قبلنا شرعا ، قال الله تعالى ممتنا على بني اسرائيل (وجعلكم ملوكا) ولم يكن ذلك في هذه الامة ، بل جعل لهم خلافة ، قال الله تعالى (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض) الآية ، وقال تعالى (وقال لهم نبيهم ان الله قد بعث لكم طالوت ملكا) وقال سليمان (رب اغفر لي وهب لي ملكا) فجعلهم الله تعالى ملوكا ولم يجعل في شرعنا الا الخلفاء .

فكان أبو بكر خليفة رسول الله (ص) وان لم يستخلفه نصا لكن فهم الناس ذلك فهما ، وأجمعوا على تسميته ، ثم استخلف أبو بكر عمر فخرج بها عن سبيل الملك الذي يرثه الولد عن الوالد الى سبيل الخلافة الذي هو النظر والاختيار ، ونص في عهده على ذلك ، ثم اتفق أهل الشورى على عثمان . فاخراج عمر لها عن بنيه الى الشورى دليل على انها ليست ملكا ، ثم تعين علي بعد ذلك اذ لم يبق مثله ، فبايعه من آثر الحق على الهوى ، واصطفى الآخرة على الدنيا ، ثم الحسن كذلك ، ثم كان معاوية أول من حول الخلافة ملكا ، والخشونة لينا ، ثم ان ربك من بعدها لغفور رحيم ، فجعلها ميراثا ، فلما خرج بها عن وضعها لم يستقم ملك فيها . ألا ترى ان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه كان خليفة لا ملكا ، لان سليمان رحمه الله رغب عن بني أبيه ايثارا لحق المسلمين ، ولئلا يتقلدها حيا وميتا ، وكان يعلم اجتماع الناس عليه ، فلم يسلك طريق

الاستقامة بالناس قط الا خليفة، وأما الملوك فعلى ما ذكرت الا من قلَّ، وغالب أفعاله غير مرضية » اه

فيظهر لنا من هذا الكلام الفرق بين الخلافة والملك، والسبب الذي جعل ملوك الافرنج مقدسين وغير مسوءلين

٭٭٭

﴿ منبع الاستبداد قصر الملك والخلافة ﴾

إن منبع استبداد الدول الاسلامية في قديم الزمان وحديثه هو قصر الخلافة، ودار الملك والامارة، حيث تكثر دسائس المقربين، ويشتد حرصهم على الجاه وطمعهم في جمع الاموال وادخارها وفي انفاذ الكلمة، ولذا ابتعد عنهم أهل التقوى والورع في جميع البلدان والازمان. فالمقرب منهم لايكاد يتم له الامر الا ويظهر له رقباء يشون به، وينصبون له اشراك المكيدة، ويتهمونه بانواع التهم، وينسبون اليه كل الخلل في الدولة، حتى يبعدوه عن مركز الدولة، وربما تسببوا في مصادرته وقتله مع

أولاده وعياله كما جرى للبرامكة مع هارون الرشيد .
فتاريخ الدول والامارات الاسلامية كله وقائع برمكية .
وقد ينتصر الوزير على الخليفة أو الامير ويحجر عليه
ويصير هو المستبد بالامر ، ونتيجة القضيتين واحدة وهي
الاستبداد ، وتغلب القوة على الحق . والامة في جميع هذه
الاحوال شاخصة ببصرها لا تطلع على خفايا السياسة
وتدبير الملك ، ولا على دسائس المقربين وحيلهم لاخفائهم
جميع ذلك عنها ، واستبدادهم بالامر عليها . ولقد أجاد
لسان الدين بن الخطيب وزير بني الاحمر في الرسالة التي
خاطب بها الوزير بن مرزوق ووصف بها أحوال خدمة
الدولة ومصايرهم ، وعبر فيها عن ذوق ووجدان وهي
أبلغ ماحرر في هذا الصدد ، وقد ذكرها المقري في الجزء
الثالث من نفح الطيب في غصن الاندلس الرطيب .
فالمصلحون لم يتخلصوا من هذه الغوائل ولا وجدوا وقتا
لاصلاح داخل الممالك وتحكيم سياستها الخارجية ، ولذا

انصرفت هممهم لجمع الاموال وادخارها ، واغتنام فرصة التقرب ونيل التوجه واكتساب السعادة ، لان الواحد لايدري الى متى يدوم له التوجه والاقبال ، فيسارع الى الاستفادة من الحال التي اسعده الحظ بنيلها

قصر السلطنة العثمانية

وتربية ولي العهد والسكامريلا

كان قصر السلطنة في الممالك العثمانية مرتبا على الاصول والتقاليد الموروثة عن المغول ، فقد كانت الدولة عبارة عن خيمة كبيرة حكومتها بابها العالي . وأول وظيفة على هذه الحكومة انزال الخان المعظم على الرحب والسعة ، واسكان من معه من الحريم والاسرة والاقارب والحاشية ، واستكمال أسباب راحتهم وسعادتهم ، واستحضار النفقات اللازمة لهم ولرؤساء (العرضي) . فالعمود الاوسط القائمة عليه هذه الخيمة هو «الصدر الاعظم» القائم مقام الخان

المعظم أي السلطان والحامل لختمه الذاتي والوكيل المطلق عنه في جميع مسائل الدولة الداخلية والخارجية ، وبجانبه « قاضي عسكر » لفصل الدعاوي وتقسيم مواريث الجند والمحافظة على حقوق السلطنة ، وشيخ الاسلام انما هو « قاضي عسكر » وظيفته أحدث عهدا . فقضاء العسكر قديم في الدولة ومتقدم فيها على قضاء المدن مما يدل على حياتها العسكرية المتنقلة ، ثم « الدفتردار » الذي يقيد الاموال ويحرر الحساب ، وهو اليوم ناظر المالية ، ثم « النيشانجي » الذي يكتب الإرادات والفرمانات وغيرها ، فهؤلاء أعمدة ثانوية حوالي العمود الاعظم الذي في وسط الخيمة ، واما حبال الخيمة فهي الاغوات،

ويقسم الاغوات بحسب خدمتهم في الداخل أو في الخارج إلى قسمين : فالقسم الاول هم خدمة الداخل المسمى « اندرون » من مماليك البيضان وطواشية السودان المحافظين على الحريم ، وكبيرهم آغة دار السعادة

ويسمى أيضا آغـة البنات « قيزلر آغاسي » ، ثم آغة البستانين « بستانجي باشي » المكلفين بزرع البساتين والجنان ، وآغة الرسل الموصلين للاخبار ، وآغة المحافظين على الاثواب والالبسـة « اثوابجي باشي » و « القهوه جي باشي » و « الابريقـدار » و « السجاده جي باشي » ... الخ

والقسم الثاني هم خدمة الخارج وأغوات (العرضي) مثل آغة الانكشارية « يكيجري آغاسي » وآغـة الصباهية «سباهي » وآغة الطوبجية وهو « الطوبجي باشي » ... الخ . فهؤلاء الاغوات من خدمة الداخل وخدمة الخارج كلهم في درجة واحدة بمثابة حبال الخيمة، ولا فرق بينهـم في التشريفات الرسـمية والمعاشات والتعيينات ، ولا في الاعتبار والمكانة عنـد الدولة ، فالجاهل والعالم ، والعبد المملوك والحر ، ووضيع النسب وشريفه ، ومجهول الاصـل ومعروفه ، والابتر الخصي

وكامل الاعضاء — كلهم متساوون لا تميز بين «القهوه
جي باشي» الذي لا تحتاج صناعته إلا لمعرفة طبخ القهوة
وتقديمها ، وبين « الطوبجي باشي » المتوقفة صناعته على
معرفة الفنون العسكرية والمعارف الكثيرة ، وهذا الذي
حمل الشاعر المفلق الامير شكيب على ان يقول أبياته
المشهورة ومنها :

وألفيت فيها أمة عربية
يرى الترك منهم أمة الزنج اكرما

ولذا امتزجت الحياة البيتية بالحياة الدولية، والمسائل
النسائية بالمسائل السياسية ، واشغال السراي السلطانية
بأشغال الباب العالي . وبين السراي والباب العالي وسط
يقال له المابين لانه بين « الاندرون » أي الداخل
وبين « البيرون » أي الخارج . ويشتمل المابين على
الكتاب والقرناء والمصاحبين وهم «المابينجية» ويعدون
كلهم من أهل السراي وخدمتها

فامتلأت السراي السلطانية بالاسرى من السراري الجركسيات والمماليك والطواشية ، مع أن الشرع الإسلامي لا يبيح هذه العادة المستكرهة ، قال شارح الدر : « وفي قطع الذكر من الاصل عمداً قصاص » ويندر فيهم وفي جميع خدمة الداخل من يتعلم القراءة فضلا عن الكتابة ، لان فضيلة الواحد منهم ان يكون على الفطرة الاصلية فارغا من العلوم والمعارف ، لئلا يسول له الشيطان أمرا أو دسيسة سياسية توجب انقلاب الملك ، ولذا اختاروا الخدمة من قرى الاناضول البعيدة ومن ذوي السذاجة والغرارة ، فاذا ولد لاحد السلاطين العظام مولود تربى في حجر والدته الجركسية على دلال السراري والاغوات إلى تمام السنة الثانية عشرة من عمره ، ثم تبدل تلك السراري بالحظايا فيتخذ منهن حرما ينزوي بهن في أحد القصور ، وتبقى الاغوات والمماليك على ما كانت عليه أيام صباه ، وربما جاؤه بحافظ يحفظه

القرآن ، ومعلم يعلمه مبادي العلوم ، ولكن أكبر معلم للانسان هو البيئة التي يكون فيها ، وكيف يتعلم المرء من دون ان يخرج من بيته ويحتك بالعلماء ورجال الدولة!! فيبقى ولي العهد على هذه الحال ينتظر دوره في الملك ، وهو محبوس في قصره ، وعليه العيون والجواسيس لا يمكنون أحدا من الدنو اليه ولا المرور بجانب قصره، فضلا عن محادثته في المسائل العلمية والسياسية ،

ومتى جاء دوره وجلس على سرير الملك سعى طواشية السودان ومماليك البيضان في وضعه تحت نفوذهم، وحرصوا على ان لا يفلت من أيديهم ، وفتشوا على أضعف نقطة في قلبه وأخلاقه ، فلا يمضي عليهم كثير حتى يكتشفوها ، فيستميلون قلبه اليهم من تلك النقطة، ويستفيدون منها لانفاذ كلمتهم وجر المنافع اليهم والى أصحابهم ومن كان من حزبهم وشيعتهم . فيتألف من خدمة القصر الملوكي حزب قوي يسمى كامريلا

«Camarilla» وهي كلمة أسبانية معناها جماعة المتنفذين في قصر الملك ، فيتداخلون في المسائل و يعارضون في السياسة ويستولون على الامور، واذا رأوا السلطان مال الى صدر أعظم أو وزير انقضوا عليه وسلقوه بألسنتهم وافتروا عليه بإفكهم، ونسبوه للعجز والتقصير، وسعوا في تنزيل قدره وترذيله، لاجل وضعه تحت سيطرتهم، ولذا كان في الغالب للقهوه جي باشي والاثوابجي باشي والابريقدار والسجاده جي باشي والبستانجي باشي حتى البلطه جي باشي وهو الحطاب — نفوذ كلمة ومكانة أكثر من الصدر والوزراء وبقية رجال الدولة، ولا سيما في المسائل المالية وجر المنافع وتوظيف المنتسبين اليهم، ولم تزل رتبة آغا دار السعادة معادلة لرتبة الصدر الاعظم والخديوي المعظم، ولهم بالفرنسية لقب سون ألتس (Son Altesse) كأمراء الافرنج وابناء ملوكها العظام، ولم يزل أكثرنا متذكرا نفوذ بهرام آغا وأمثاله .

شروع الدولة العلية بالاصلاح

لو استمرت أوربا نائمة في ظلام القرون الوسطى لبقيت الدولة العلية سائرة في هذه الطريق العوجاء سير مملكة الصين ، أو سلطنة المغرب الاقصى التي انحطت إلى درجة البداوة ، بعد ان كان لها في العمران قدم راسخة ، بسبب مهاجرة الاندلسيين اليها ومتاجرتهم في أفريقيا الغربية ، ولكن أوربا استيقظت من غفلتها في القرون الجديدة ، وأوجدت هذه المدنية العجيبة التي بهرت العالم ، وغيرت وجه الارض با كتشافاتها واختراعاتها وعلومها وفنونها وآدابها ، وتجاوزت دول استريا (النمسا) وروسيا والبندقية الى ممتلكات الدولة العلية ، فأحست بالضعف والانحطاط والتقهقر ، وبدأت في الاصلاحات الجديدة من عهد السلطان مصطفى خان الثالث : فأحدثت الطوبخانة ، وأنشأت معملا لصنع المدافع ، واقبل السلطان سليم الثالث

بهمة عالية واقدام على القيام بالاصلاح ، ورتب إدارة الطوبجية والبحرية ، وجلب المعلمين والمهندسين من أوربا ، وأحدث النظام الجديد ، فاغتالته أيدي المنون بسبب هيجان الانكشارية الذين فسدت أخلاقهم ، وأصبحوا بلاء مبرما على الامة والدولة ، بعد ان كان لهم في الفتوحات العثمانية شأن عظيم ، ومفاخر كثيرة مسطورة في تاريخ أوربا العسكري .

السلطان محمود الثاني

ثم جلس السلطان محمود الثاني وازال غائلة الانكشارية ، ونظم العساكر الجديدة ، واجرى من الاصلاحات ماهو مفصل في التاريخ العثماني . واصاب الدولة العلية من الحوادث المهمة ماحملها على الاحتكاك بالدول الاوربية والدخول في ميدان سياستها مثل حروبها مع روسيا ، واحتلال نابليون بونابارت لمصر وسوريا ، وخروج محمد علي

باشا ، وتبه دلنلي علي باشا ، وحرب الموره ، واستقلال اليونان ، وحوادث جبل لبنان. وتداخلت أوربا في شوون الدولة العلية باسم المحاماة عن المسيحيين : فروسيا تحامي عن الامم السلافيـة وجميع المتدينين بالمذهب الارثوذكسي ، وفرنسا عن الكاثوليك ، وانكلترا عن مبشري البروتستانت ، وكنَّ جميعهن يحرضن المسيحيين من رعية الدولة على مقاومة الاستبداد ، ويطالبن الباب العالي بإجراء الاصلاحات ، ووضع القوانين والنظامات لمنع التعدي على النصارى ، ولمساواتهم في الحقوق مع المسلمين. والباب العالي يجد الاستفادة من العداوة القديمة التي غرستها الحروب الصليبية بين المسلمين والنصارى أهون عليه من سوق العساكر وتكبد المصروفات الحربية لتسكين الفتن واخماد الثورات. وهكذا جرت المذابح وارتكبت الفظائع التي تقشعر الجلود من سماع وصفها ، وعادت على الوطن

بالويل والخراب : كمذابح الروم في حرب المورة ، ومذابح لبنان في حادثة الشام ، ومذابح البلغار في حرب روسيا الاخيرة ، وهي التي قام لها غلادستون وقعد ، وارغى وأزبد ، على منبر الخطابة في مجلس العموم الانكليزي ، وآخرها الفظائع الارمنية المعروفة ، وهي نقطة سوداء في صحيفة التاريخ .

صدارة مصطفى رشدي باشا

ان الحوادث التي جرت قبل معاهدة باريس ساقت بعض رجال الدولة الى تعلم اللغات الاوربية ولا سيما الفرنسية للوقوف على سياسة أوربا ولتنظيم العساكر البرية والبحرية ، وكان لا كثر المتعلمين نسبة وتردد على مصر التي شرعت بالاصلاحات على عهد محمد علي باشا. فنبغ من رجال الدولة مصطفى رشيد باشا السياسي الشهير ابن مصطفى افندي متولي وقف السلطان بايزيد ، وكان

مولده في الاستانة (١٢١٤هـ)

قرأ القرآن ومبادىء العلوم الاسلامية وأجاد الخط وتعلم شيئا من مبادىء اللغة الفرنسية، ثم لازم نسيبه الصدر الاسبق اسبارطه لي علي باشا، وذهب إلى مصر مرارا وخالط رجالها وتقلب في مناصب الدولة العلية وفي سفارة باريس ولوندره، فاكمل تحصيل اللغة الفرنسية واطلع على دقائق السياسة وخوافيها، وكانت المسألة الشرقية شاغلة وزارات أوربا بسبب اجتهاد روسيا في جمع كلمة الامم السلافية، وطمعها في الاستيلاء على القسطنطينية. وروسيا اكبر الدول الاوربية واكثرها نفوسا وأشدها خطرا على الموازنة السياسية. فكانت الدول الاوربية وفي مقدمتهن انكلترا التي هي أحرص الدول على مقاومة السياسة الروسية، تشوق الدولة العلية الى القيام بالاصلاحات الجديدة لتستعيد قوتها السابقة فتحمي نفسها، وتكون لبقية الدول سدا منيعا امام هجوم روسيا

السلطان عبد المجيد

لما جلس السلطان عبد المجيد خان (تموز «يوليو» سنة ١٨٣٩) كان مصطفى رشيد باشا سفيراً في لوندره، فعين ناظر للخارجية وحضر الى الاستانة، وكان له رأي ودخل كبير التنظيمات، وفي تشرين الثاني (نوفمبر) من السنة المذكورة قرأ بحضور رجال الدولة وأعيانها وسفراء الدول الاجنبية الخط الشريف السلطاني المعروف بالتنظيمات وكانت قرأته فى كلخانه (أي دار الورد) وهي من دوائر السراي القديمة (طوب قبو) التي بجانب جامع اياصوفيا. ولذا اشتهر بخط شريف كلخانه، وقد اشتمل على تأمين الرعية على أرواحهم وأموالهم وأعراضهم، وعلى قاعدة مطردة في استيفاء الاموال الاميرية، وعلى أخذ العسكر بالقرعة وتعيين مدة الخدمة، والغاء الامتيازات، وطرح التكاليف بنسبة ما لكل واحد من الثروة،

ومساواة الرعية أمام القانون، والغاء المصادرة و (الانغارية) وهي الاجبار على العمل بلا أجرة وتعرف بالسخرة، ونحو ذلك مما هو مدرج في هذا الفرمان المعروف بالتنظيمات

فالدولة العلية إنما أصدرت هذه التنظيمات إرضاء لاوربا ولا سيما انكلترا. والامة الاسلامية لم تفهم معنى هذه التنظيمات ولا معنى تأمين الناس على الارواح والاموال والاعراض، كأن الشريعة التي كانت دستور العمل تبيح التجاوز والتعدي على الارواح والاموال والاعراض، وحاشاها من ذلك. فالبلاء لم يكن سببه فقدان القانون والشريعة حتى يزول باصدار هذه التنظيمات، وانما سببه الاستبداد المتسلط على كل قانون وشريعة. فالحرية التي منحتها التنظيمات لم تكن شيئاً مذكوراً بجانب الحرية التي منحها القرآن، لو زال الاستبداد والجهل المستوليان على اهله المسلمين، واجتهدوا

في فهمه وتأويله على مقتضى نواميس المدنية الحاضرة كما فعل احرار العلماء كالشيخ محمد عبده وغيره

شرعت الدولة العليـة في إجراء الاحكام المشار اليها في التنظيمات ، وسنت قانونا لاخذ العسكر جرى تطبيقه في بعض الايالات ، وأحدث في بعضها ثورة وعصيانا كعصيان الارناؤط (١٨٤٤) الذي سكنه رشيد باشا نفسه . ثم باشرت في تنظيم المعارف وفتح المدارس في الاستانة ونظمت محاكم التجارة المختلطة (١٨٤٦) كما نظمت بعض دوائر الدولة وأقلامها . فكان مصطفى رشيد باشا الذي تولى مسـند الصدارة العظمى ست مرات وتوفي سـنة ١٢٧٤ هـ - ١٨٥٨ م — مصدر هذه الاصلاحات ، بسبب وقوفه على الافكار الجديدة ومعرفته اللغة الفرنسية والادبيات العثمانية . وهو أول من افرغ الكتابة التركية في قالب سهل سلس ، بعد ان كادت تكون غير مفهومة عند الجميع ، لكثرة ما فيها من التعقيد

والتشابيه الغامضة والالفاظ والتراكيب اللغويه من فارسيه وعربيه . ونشأ في عهده وتحت ظله الشاعر الشهير ابراهيم شناسي افندي موجد الادب العثماني الجديد . حصل العلوم العربيه واللغه الفرنسيه ، وذهب الى باريس فاطلع فيها على آداب الطريقه المدرسيه ونسج على منوال راسين ولافونتين وأدخل في الادب التركي التعقل المشروط في الطريقه المدرسيه كما فصلنا ذلك في كتابنا « تاريخ علم الادب »

وكان الادب التركي كله خيالات ومبالغات أعجمية قلما يجد الانسان فيه حكمة وتعقلا ، وديوان شناسي صغير الحجم ، ولكنه أنموذج للادب الجديد ، وأكثر قصائده في مدح مصطفى رشيد باشا . وأنشأ شناسي جريدة تركية سماها (تصوير افكار) وحرر فيها المقالات السياسية والتاريخية والادبية بقلم سهل سلس مفهوم . وطبع ديوانه مع منتخبات (تصوير أفكار) ثانية في

مطبعة أبو الضيا توفيق بك ، وكانت وفاة شناسي في سنة ١٢٨٨ هـ قبل بلوغه سن الشيخوخة والوظائف العالية

عالي باشا وفؤاد باشا

ظهرت فئة قليلة من المتعلمين على النسق الجديد واقتفوا أثر مصطفى رشيد باشا ، ونبغ منهم اثنان شهيران خلد التاريخ ذكرهما وهما السيد أمين عالي باشا وفؤاد باشا ، ومولدهما في سنة ١٢٣٠ هـ والاول ابن مصر جارشيلي علي رضا افندي أي المنسوب لسوق مصر وهو سوق العطارين . والثاني ابن الشاعر الشهير كجه جي زاده عزت ملا الذي نفي للاناطول في زمن السلطان محمود خان ومات في منفاه . فتعلم أمين مبادئ العلم واجادة الخط وقرأ الفرنسية على معلم مخصوص ودخل قلم الديوان الهمايوني في الخامسة عشرة من عمره

وكان من عادة رؤساء القلم تسمية كل داخل باسم يتميز

به عن سميه ، ولم يصطلحوا كالعرب والافرنج على تسمية الولد باسم أبيه أو أسرته . وكان أمين قصير القامة فسمي (عالي) تسمية بالضد تفاؤلا بعلو همته . فذهب الى أوربا موظفا في كتابة السفارات واتقن الفرنسية وانتسب لرشيد باشا وامتاز في فنون السياسة والمعارف العصرية وعين عضوا في (انجمن دانش) أي مجلس المعارف المؤسس على نسق المجامع العلمية في أوربا (l'Académies) . وكان عالي باشا يحسن الفرنسية والتركية كتابة وانشاء ، وتقلب في وظائف كثيرة مهمة مثل السفارات والوزارات ومسند الصدارة العظمى . وأما فؤاد فدخل المكتب الطبي العسكري وخرج جراحا في العسكرية ، ثم دخل قلم الترجمة في الباب العالي وتقلب في الوظائف السياسية الداخلية والخارجية ، ورأس مجلس التنظيمات ومجلس الاحكام العدلية وحضر الى سوريا أيام حوادث لبنان وكان إذ ذاك ناظراً للخارجية ،

ثم ذهب بمعية السلطان عبد العزيز إلى معرض باريس سنة ١٨٦٧ ومرض فيها وتوفي في (نيس) من اعمال فرنسا وله من العمر ٥٥ سنة فقط ، وكان في اللغة التركية أديباً شاعرا وضع مع جودت باشا « القواعد العثمانية التي لم يؤلف للآن أحسن منها ، وخلف الفريق كجه جي زاده عزت فؤاد باشا الكاتب الشهير

فرشيد باشا وعالي باشا وفؤاد باشا هم نوابغ السياسة العثمانية وواضعو الاصلاحات الجديدة بدلالة السفراء الاجانب ارضاء لدول أوربا ولا سيما انكلترا ، ومماشاة لها لحرصها على تقوية الممالك العثمانية لتتقي بها شر روسيا . فأمر هؤلاء النوابغ بترجمة القوانين والنظامات والتعليمات والامور المدرجة في الدستور ترجمة حرفية ، ولم يجدوا لهم وقتا لدرس احتياجات البلاد الداخلية والمدنية الاسلامية حق درسها ، ولا لنشر الافكار الجديدة بين المسلمين المفاخرين بسابق مجدهم ومتانة شرعهم ، ولذا

لاموا هؤلاء المصلحين ولم يرضوا عن أعمالهم زاعمين انها تؤل إلى قلب البلاد وجعلها أفرنجية محضة . ولذلك كانت الاكثرية لحزب تركيا القديمة ، ولم يكن من حزب تركيا الفتاة الافئة قليلة ، درسوا العلوم الجديدة درسا سطحيا وبعضهم زار أوربا مرة أو مرتين . ومع هذا وفق حزب تركيا الفتاة لاستمالة أوربا اليه ، وافلح في الحصول على اتفاق انكلترا وفرنسا وساردينيا أي ايطاليا ، فحاربن روسيا وانتصرن عليها في حرب القرم وعقدن معاهدة باريس (٣٠ مارس سنة ١٨٥٦) واعترفت أوربا بمقتضاها بتمام ملكية الدولة العثمانية واستقلالها ، ومنع أية دولة من المداخلة في أمورها الداخلية ، وصدر خط شريف ثان في ذلك التاريخ أيضامؤيد لخط كلخانه ، وهو يشتمل على حرية الأهالي ومساواتهم في الحقوق والمعاملات . ثم جلس السلطان عبد العزيز خان سنة ١٨٦١ وأصدر فرمان الاصلاحات ولكن هذه الفرمانات

والخطوط الشريفة السلطانية لم تمنع سوء الاستعمال والاستبداد الذي في إدارة الدولة تماما ، بل بقي الارتكاب والظلم والاستبداد على ما كان عليه سابقا ، لعدم اصلاحهم السراي السلطانية كما أصلحوا وجاق الانكشارية والصباهية وقلبوهما إلى النظام الجديد

حزب تركيا الفتاة

أول مؤسس لحزب تركيا الفتاة هو مصطفى فاضل باشا ابن ابراهيم باشا المصري ثم صهره خليل شريف باشا . ولد مصطفى فاضل في القاهرة سنة ١٨٣٠ م وحصل العلوم الجديدة حتى صار على جانب من العرفان والاضطلاع والوقوف على دقائق الامور ، فخدم في مصر وبعد جلوس السلطان عبد العزيز بسنة عين ناظرا للمعارف في الاستانة ، ثم ناظرا للمالية وأجرى فيها عدة اصلاحات ، وكان ميكروب الاقتراض قد تفشى في

هذه النظارة ، وأحدث بلاء القوائم النقدية ، حتى بلغت الديون ما بلغته فأثقلت كاهل الامـة ، وكان الصـدر الاعظم إذ ذاك يوسف كامل باشا صهر والي مصر محمد علي باشا، ومترجم تلياك للتركية الترجمة الاولى العويصة، وكان عالي باشا في نظارة الخارجيـة ، وفؤاد باشا في رياسة مجلس الاحكام العدلية ، ثم في نظارة الحربية ، وأدخل فيها حسين عوني باشا العـدو الالد لعمر باشا المجري . وكان فؤاد باشا انتدب حكما لفصل الخلاف الحادث بين مصطفى فاضـل باشا واخوته على تقسيم ميراث أبيهم فحصل بينهما موجدة وعـداوة ، فلما تولى فؤاد باشا الصدارة تسبب في عزل مصطفى فاضل من نظارة المالية مع ماله من الخدم والاصلاحات المفيدة ، فشق ذلك على مصطفى فاضل وقدم للسلطان عبد العزيز خان لائحته الشهيرة التي شـدد فيها النكير على الاستبداد ، وكشف الغطاء عن عورات الدولة ، و بين

أسباب الضعف والانحطاط وسوء الاستعمال بحريه لم يعتدها رجال المابين ولا سمعوا بمثلها قبل ذلك، ثم هاجر إلى باريس سنة ١٨٦٥ ولحقت به فئة من الشبان فأكرم مثواهم وأنفق على تعليمهم، ونبغ منهم كثيرون في الادب والكتابة والسياسة . حدثني أحدهم قال كنا في باريس في عيشة راضية لا يهتم الواحد منا بأمر معايشه، فاذا فرغ من الدرس والتحقيق والمشاهدة عاد الى منزله فوجد ما يحتاج اليه من الطعام والمنام، بخلاف أحرار هذا الزمان الذين قاسوا أشد العذاب في أمر معايشهم

فاشتغلت النابتة الجديدة بفنون الادب وعلوم التاريخ والسياسة والصناعات النفيسة، فنظموا الشعر وألفوا القصص ونشروا المقالات في الجرائد، ونبغ منهم نامق كمال بك شاعر النشأة الجديدة وأديبها وموجد الادب الجديد العثماني، ولد في الاستانة سنة ١٢٥٠ﻫ وقرأ في المكاتب

وتعلم الفرنسية وصارت له مهارة زائدة في الانشاء الذي نشر به مقالاته السياسية في الجرائد بأسلوب مستحدث طريف هو من السهل الممتنع ، واشعاره على نسق اشعار فيكتور هوجو في طلب الحرية وتدبير المملكة واصلاح شؤون الحكومة ، وله مؤلفات كثيرة منها التاريخ العثماني الذي لم يطبع ، وقصة وطن أو سليستره التي تمثل اليوم في الاستانة وسلانيك بعد حدوث الانقلاب ، وتوفي نامق كمال بك وهو متصرف في جزيرة ساقز سنة ١٣٠٥ هـ

ومنهم ضيا باشا الاديب الشاعر ، وسعد الله باشا سفير فينا الاسبق مترجم قصيدة لامارتين التي عنوانها (البحيرة) ، وله اشعار عصرية رائقة ، ومنهم أبو الضيا توفيق بك الذي أصلح حروف الطبع وكتب الخط الكوفي ، وطبع الكتب والرسائل والمجموعات بصنعة بديعة عجيبة لم تبلغها إلى الآن مطابع الشرق ولا مطابع أوربا الشرقية ، وعبد الحق حامد بك سفير بروكسل وصاحب قصة طارق

بن زياد ، وكثير غيرهم من الكتاب والادباء انصار حزب تركيا الفتاة الذي أسسه مصطفى فاضل باشا ، ثم صهره خليل باشا الذي جاء من مصر إلى الاستانة وتوظف في نظارة الخارجية بسبب معرفته الفرنسية وصار سفيرا في باريس وغيرها وناظراً للخارجية ، وتزوج بأكبر بنات مصطفى فاضل باشا وهي الاميرة الشهيرة نازلي هانم التي اقتفت أثر والدها وزوجها الاول في تعضيد حزب تركيا الفتاة ، وساعدته بالمال والجاه هي وشقيقها الامير محمد علي باشا

***

﴿ لائحة فاضل باشا للسلطان عبد العزيز ﴾

لخص مصطفى فاضل باشا سياسة تركيا الفتاة في اللائحة المذكورة التي قدمها إلى السلطان عبدالعزيزخان وقال فيها :

« تتصور أوربا ان المسيحيين وحدهم في تركيا خاضعون

للمعاملات الاستبدادية ، ولاحتمال أنواع الاذى والتحقير المتولد من الظلم ، وليس الامر كذلك، فان المسلمين ربما كان الظلم والعسف أشد وطأة عليهم ، وهم أكثر انحناء تحت نير العبودية من المسيحيين ، لان المسلمين ليس وراءهم دولة أجنبيه تنحيز لهم وتحامي عنهم ، فرعايا جلالتكم من جميع المذاهب مقسومون إلى صنفين : الظالمين ظلماً لاحدَّ له ، والمظلومين بلاشفقة ولا مرحمة ، والاولون يجدون في الحكومة المطلقة الغير مقيدة التي تستعملها جلالتكم والتي اغتصبوها — إغراء وتشويقا إلى جميع الرذائل ، وأما الآخرون فتفسد اخلاقهم أيضا بعلاقاتهم الضارة مع سادتهم ، وبما أنهم مجبرون على الخضوع دائما للشهوات الرذيلة ، ولا يستطيعون إيصال شكاياتهم الصحيحة إلى أعتاب سدتكم الملوكية ، لان ظلاَّمهم يرون هذه الاستغاثة — مع الاحترام — بحكومة جلالتكم

من أكبر المفاسد؛ فاعتادوا على دناءة الاخلاق التي لايمكن تصورها، »

وانما الامم الاخلاق مابقيت
فان همُ ذهبت أخلاقهم ذهبوا

فهذه الاصول الاستبدادية التي كان اعداء الاصلاح من حزب تركيا القديمة يريدون المحافظة عليها، ويعدون التمسك بها من الغيرة الدينية والحمية الوطنية، والاسلام والوطنية بريئان منها للاسباب المشروحة فيما مر. فحزب تركيا الفتاة يمكننا ان نعتبر وجوده منذ تولى مصطفى فاضل باشا نظارة المعارف (١٨٦٢ م) وهاجر الى باريس (١٨٦٥-١٨٦٧م). وانصار هذا الحزب هم جميع المطلعين على الكتب الفرنسية وأدب الطريقة المدرسية أو على ماترجم بالتركية، والذي أطلق عليه هذا الاسم هم الفرنسيون فقالوا (جون تركي) كما يقولون (جون فرانس — جون المانيا — جون ايتالي) فترجم بتركيا الفتاة وقيل

بالتركية (كنج تركلر)، ولذا قال هانوتو: إن تركيا الفتاة من اللغة الفرنسية. وقد جوزي مصطفى فاضل باشا على جرأته بمصادرة امواله، ثم أعيدت اليه بوساطة بعض الاجانب، ولكنه حرم من ميراث الخديوية هو وحليم باشا بسبب صدور الفرمان السلطاني بانتقالها إلى أكبر أولاد المالك وهو إذ ذاك اسماعيل باشا، وصار مسند الخديوية ينتقل من الوالد إلى ولده، بعد ان كان ينتقل إلى الاكبر فالاكبر من الاسرة، كما هي القاعدة التقليدية في جميع الممالك الاسلامية، لما علمت من ان الاسلام ليس فيه ملك موروث،

وفي سنة ١٢٧٨ﻫ و١٨٧١م أصيبت المملكة العثمانية بوفاة أشهر قوادها عمر باشا، وأشهر ساستها الصدر الاعظم عالي باشا صاحب الاعمال الكثيرة في تنظيم ادارة الحكومة، ووضع ميزانية للمالية، وتأسيس نظارة الداخلية والاوقاف ومجالس الدعاوي والتمييز وتنظيم أصول المحاكمات واستعمال الاصول الاعشارية، وغير ذلك من

الاصلاحات الداخلية والسياسية الخارجية ، وترجمت القوانين والنظامات عن الفرنسية بلا نظر ولا معرفة بصالح البلاد واحتياجاتها فترجموا مثلا قانون التجارة الفرنسي القديم وأبقوا فيه مسائل النكاح والبائنة (الدوته) واشتراك الزوجين بالاموال وعدمه ، كما هو مختص بالاوربيين ولا وجود له في الشرق ، لاعند المسلمين ولا عند المسيحيين . وبعد وفاة عالي باشا تولى مسند الصدارة محمود نديم باشا ومال إلى روسيا حتى سمي «نديموف» وبذر اموال الخزينة وأصبح آلة في يد الجنرال اغناتيف سفير روسيا في الاستانة

صدارة نديم باشا الأولى

محمود نديم باشا كان أبوه واليا ، فتربى في داره على الاستبداد والارتكاب ، وتعين واليا كأبيه ثم ناظرا للبحرية ، وكان شديد التعصب للادارة القديمة المستبدة

كثير البغض للاصلاحات الجديدة والحرية. تقرب الى السلطان عبد العزيز خان بالتملق، واستولى عليه من أضعف نقطة فيه وهي العظمة. فدس له بانه تحت وصاية فؤاد باشا وعالي باشا، مع انه خليفة الله في الارض، والقابض على رقاب خمسين مليونا من الرعية الذين هم عبيد جلالته!!! وان بيت المال هو حق من حقوقه له ان يتصرف فيه حسبما شاء وأراد!!، وكانت الميزانية المالية وضعت في أيام عالي باشا وفؤاد باشا، وحددت فيها مصروفات المابين، فانقلبت أحوال السلطان عبد العزيز خان في صدارة محمود نديم، واستبد بالامر، وأبعد عن الوظائف الملكية والعسكرية الرجال الذين تخيرهم عالي باشا ودربهم وعلمهم حتى كانوا من خيرة الموظفين، واستبدل بهم المرتكبين، وكثر تحويل الوظائف والعزل والنصب والترقي في جميع الوظائف الملكية والعسكرية، حتى كان الضابط يرتقي إلى المراتب

العلى في أقرب وقت ، ويصبح مشيرا ، بعد ان كان من قبل أشهر ضابطا صغيرا . وزاد الاسراف والتبذير ببناء السرايات التي لا لزوم لها ، وإنشاء الاسطول الذي صار أثرا بعدعين كما زادالانهماك في الملذات والشهوات ، وكانت أوربا وصيارفة الاستانة تقرض الاموال بالربا الفاحش والديون تترا كم على الدولة ، والمكلفون بأدائها هم فقراء الرعية من اصحاب الاعشار والاغنام يؤدونها من كدّ اليمين وعرق الجبين .

× ومن الغلطات السياسية في صدارة محمود نديم باشا اصدار الفرمان بفصل الكنيسة البلغارية عن الكنيسة الرومية ، وتعيين اكسارخوس للبلغار مستقل عن بطريك الروم في القسطنطينية ، وكان ذلك بمساعي الجنرال اغناتيف حبيب محمود نديموف باشا للتوصل إلى احداث دولة للبلغار ، مع ان الباب العالي كان يعتبر جميع هذه الامم الصغيرة كالبلغار والصرب والافلاخ

والبغدان والجبل الاسود والهرسك روما تابعين لبطريركية القسطنطينية لاشتراكهم جميعا في الدين الارثوذكسي.
ومن الغلطات المالية أيضا إعطاء المثري النمسوي اليهودي الشهير وهو البارون هرش امتيازا بسكة حديد الروم ايلي المعروفة بسكك الحديد الشرقية، واضرار الخزينة والامة من وراء ذلك ضرراً كبيرا، وفي اثناء ذلك ظهر مدحت باشا في مسند الصدارة،

صدارة مدحت باشا الاولى

ولد مدحت باشا في القسطنطينية سنة ١٨٢٢ م، ووالده حاج علي افندي أصله من روسجق التي كانت مركز ولاية الطونه (بلغارستان) على ضفة نهر الطونه (الدانوب) اليمنى، ولما كان من صغار الموظفين لم يستطع تعليم ابنه غير مبادئ العلوم وحسن الخط المعدود في ذلك الدور من أكبر العلوم وأعمها للدخول في الوظائف

والترقي فيها ، وأدخله على حداثة سنه قلم الصدارة فتخرج في أقلام الباب العالي ، وتعلم بالمشاهدة والتجربة والاختبار ، وتعين مأمورا في الولايات ومكث سنتين في دمشق الشام ، وترقى الى أن صار باشكاتب في مجلس (والا) وهو شورى الدولة ، وذهب مرة ثانية إلى دمشق وحلب للتحقيق عن القبرصلي محمد باشا ، والفت باستعداده واجتهاده نظر رشيد باشا وعالي باشا وفؤاد باشا ورفعت باشا ناظر الخارجية اليه ، فأجلسه معه رفعت باشا ليسمع المحاورة التي دارت بينه وبين البرنس منجيكوف مندوب دولة روسيا وذلك قبل حرب القرم ، فاطلع مدحت باشا حينئذ على السياسة الخارجية ، وبعد وفاة رشيد باشا سنة ١٨٥٨ م تولى الصدارة عالي باشا فأذن لمدحت بالذهاب إلى أوربا مدة ستة أشهر ، فذهب إلى باريس ولوندرة وبروكسل وفينا ، وشاهد انتظام الادارة ومحاسن المدنية والترقيات العصرية .

ثما زال يرتقي في الوظائف حتى صار والياً على ولاية الطونة (بلغارستان الآن) فأجرى فيها اصلاحات كثيرة ، وفتح مجلس الايالة وهو المجلس العمومي الذي فتحه راشد باشا في سوريا ، ثم عين والياعلى ولاية بغداد ومشيرا لعساكرها فسكن عصيان نجد ، فأهداه السلطان عبد العزيز خان سيفا مكافأة له على خدمه ، واذ كان الصدر الاعظم محمود نديم باشا كثير العزل والنصب والتبديل نقل مدحت باشا من ولاية بغداد إلى ولاية ادرنه ، فمر بكرسي السلطنة وطلب مقابلة الحضرة السلطانية وأراها طرق الخلل وسوء الادارة وعاقبة الامر ، فعزل محمود نديم من الصدارة وتولاها مدحت باشا ولكنه لم يبق فيها إلا ثلاثة أشهر ، وكان سبب عزله على ماروي ان احدى سراري القصر بعثت اليه مع الطواشي طالبة تعيين أحد خدامها قائمقام في أحد الاقضية فأجابه مدحت « سلم على الخانم وقل لها ان تلتمس هي بنفسها من

أفندينا ذلك » واشـتد غضبه من مداخـلة السراي وتتابع رجائهن

صدارة نديم باشا الثانية

كثر تبديل الصدور بعد عزل مدحت حتى بلغوا نحو العشرة في خلال سنة أو خمسة عشر شهرا ، ثم عاد إلى الصدارة محمود نديم باشا وكان العود غير أحمـد ، فزاد الارتـكاب ، وبيعت الرتب والنياشين ، كما بيعت الوظائف بالمزاودة ، بحيث أصبح يحتجنها الذي يزيد في الثمن ، واختلت الموازنة المالية ، حـتى قضت باعلان الافلاس في ٥ تشرين الاول (اكتوبر) سنة ١٨٧٥ ، وطمع العدو في البلاد ، فأوجب ذلك هيجان تركيا الفتاة وعقلاء الامة ، وكان التجسس غير معروف في ذلك الوقت ، وكان للجرائد حرية فى الـكتابة والانتقاد ، فشرعت جريدة « وقت » التركية في نشر

الحكايات والاساطير عن ملوك الصين ، واستنتاج الامثال والمواعظ من انقراض ملكهم ، والتعريض بذلك لوزارة محمود نديم باشا ، وأخذ فريق من الناس يطوفون على المجالس والدواوين والاندية العامة ، ويقصون أنواع المظالم والارتكاب وسوء الادارة ، فهاجت الافكار العمومية ولا سيما الصوفتاوات وهم طلاب العلوم الدينية البالغ عددهم في جوامع الاستانة نحو خمسة عشر إلى عشرين ألف طالب .

هياج الصوفتاوات

(وصدارة رشدي باشا)

اجتمع من هؤلاء الطلاب زهاء خمسة أو ستة آلاف طالب ، وهجموا على الباب العالي في ٢٢ مايس (مايو) سنة ١٨٧٦ وذهب آلاف منهم إلي سراي طولمه باغجه مقر السلطان عبد العزيز فشكوا إليه طالبين

عزل محمود نديم وتولية محمد رشدي باشا ، فأجيبوا إلى ذلك ، وصدرت الارادة السنية بتشكيل الوزارة وتولية محمد رشدي باشا الصدارة، وحسين عوني السرعسكريه، وقيصرلي أحمد باشا نظارة البحريه ، وراشد باشا الذي كان واليا على سوريا نظارة الخارجية ، وخير الله أفندي مشيخة الاسلام

خلع السلطان عبد العزيز

كان حزب مدحت باشا من الاحرار مؤلفا من نامق كمال بك وضيا بك ورؤف بك واسماعيل بك ، وهؤلاء لم يرتقوا إلى رتبة الباشاويه ، وأما الذين ارتقوا منهم إلى هذه الرتبة بعد ذلك فهم حسن فهمي باشا وشاكر باشا وسعد الله باشا ورائف باشا ورفعت باشا وكانوا من الوزراء ، فلما تولى حزب تركيا الفتاة زمام الامر ، واستولى على المالية ، والقوة البرية والبحرية

والشرعية ، خلعوا السلطان عبد العزيز في ١٧ جمادى الاولى سنة ١٢٩٣ و٣٠ مايس (مايو) سنة ١٨٧٦ بفتوى من شيخ الاسلام ، واجلسوا ابن أخيه السلطان مراد خان ، ففرح به الناس واستبشروا وكان السير هنري اليوت سفير انكلترة أشد السفراء سرورا ، والجنرال اغناتيف سفير روسيا أكثرهم غما ، وهو حبيب محمود نديم باشا والمشير عليه بتلك السياسة العوجاء.. ونقل السلطان عبد العزيز من سراي طولمه باغجه إلى سراي طوب قبو المقابلة لها على ساحل البحر ، ثم نقل بناء على طلبه إلى سراي جراغان المجاورة لطولمه باغجه على ساحل المضيق (البوغاز) وبعد خمسة أيام وقع الاغتيال واختلف فيه هل كان بطريق الانتحار أو القتل عمدا ، فان الذين كشفوا على الجثة وجدوها في الطبقة السفلى من السراي على سجادة بقرب الباب ، ففي انزالها من الطبقة العليا المعدة للسكنى الى الطبقة السفلى شبهة ، وعلى فرض ثبوت الجناية فمن

عساه يكون المتهم بها ؟ هل حريم السراي وطواشيتها الذين تكثر بينهم الدسائس ويصعب التحقيق ؟ أو مدحت باشا وحزبه الذين لا مأرب لهم بذلك ؟ وقد توصلوا الى مأربهم بدون إراقة دم ، واستحقوا اجلال العالم لهم من عثمانيين وأوربيين ، وهم أعقل وأدهى من ان يلوثوا عملهم العظيم بدم جناية ودسيسة مثل هذه !!!

حادثة الجركس حسن بك

(وخلع السلطان مراد)

ثم حدثت مسألة الجركس حسن بك ياور السلطان عبد العزيز ، فانه دخل دار مدحت باشا والوزراء مجتمعون فيها ، وقتل السر عسكر وراشد باشا ناظر الخارجية ووالي سوريا قبلا وأحمد آغا الخادم وخرج ناظر البحرية وبعض الياورية الحاضرين ، فأثرت هذه الحوادث في السلطان

مراد وادت الى اختلال شعوره فخلع بعد ثلاثة أشهر وثلاثة أيام من جلوسه

جلوس السلطان عبد الحميد

جلس على سرير الملك جلالة مولانا السلطان عبد الحميد خان الثاني بعد ان اشترط مدحت باشا وحزبه ثلاثة شروط :(١) إعلان القانون الاساسي (٢) استشارة الوزراء وجعلهم مسؤلين وحدهم في أمور الدولة (٣) تعيين ضيا بك وكمال بك كاتبين خاصين للمابين وسعد الله بك باشكاتب لانهم من الاحرار الحريصين على تنفيذ احكام القانون الاساسي ، والاولون ممن قاموا بتسويده وتنميقه. فلم يعمل بهذه الشروط وتعين الداماد محمود جلال الدين باشا مشيرا للمابين ، وانكليز سعيد باشا رئيسا للياورية ، وكجوك سعيد باشا الصدر الاسبق في هذه الآونة وكان سعيد بك باشكاتب للمابين

مؤتمر الاستانة واعلان القانون الاساسي

(وصدارة مدحت باشا الثانية)

كانت بلاد البلقان في اختلال وهيجان بسبب قيام الهرسك والصرب والجبل الاسود والبلغار وتأففهم من الظلم والاستعباد ، ومطالبتهم بالاستقلال ، وتمسك كل منهم بقوميته وأدب لغته ، بعدان كان الدين المسيحي الارثوذكسي يجمعهم تحت سلطة بطريرك القسطنطينية. وكانت أوربا تطالب الدولة العلية باجراء الاصلاحات، والعناية بالمسيحيين التابعين لها ووقايتهم من الظلم والاعتساف، فتقرر عقد مؤتمر (Conférence) في الاستانة العلية لاتخاذ التدابير اللازمة لتسكين البلاد واصلاحها، وكان المؤتمر مؤلفا من احد عشر مندوبا: اثنين من انكلترة وهما سفيرها السير هنري اليوت واللورد سالسبوري واثنين من فرنسا ، واثنين من أوستريا (النمسا)، وواحد

من روسيا وهو الجنرال اغناتيف، وواحد من إيطاليا، وواحد من المانيا، واثنين من قِبَل الدولة العلية وهما صفوت باشا وادهم باشا ، فعقدوا جلستهم الاولى في ٢٣ كانون الاول (دسمبر) سنة ١٨٧٦ في دائرة الترسانة (معمل الاسلحة) التي على خليج دار السعادة من جهة غلطه، ولم يكد يتم افتتاح المؤتمر الا وقد سمعوا اصوات المدافع ، فوقف صفوت باشا قائلا: أيها السادة ان أصوات المدافع التي تسمعونها هي دلالة على اعلان القانون الاساسي من قبل جلالة سلطاننا الاعظم، وهذا القانون متكفل بالحقوق والحريه لجميع رعايا المملكه العثمانيه بلا استثناء ، وقد حصل بذلك المقصود من عقد المؤتمر، فأصبح انعقاده وعمله من قبيل العبثيات

فبُهت القوم وانفضت الجلسه. وقد اعلن القانون الاساسي حقيقة في ذلك اليوم ، واطلق لدى اعلانه مئة مدفع ومدفع في جميع المدن والممالك العثمانيه ذات القلاع،

وكان مدحت باشا هو روح هذا الانقلاب العظيم ، وهو القابض على زمام الامر في الحقيقة منذ خلع السلطان عبد العزيز وان لم يكن (صدر اعظم)، وكان الصدر الاعظم اذ ذاك محمد رشدي باشا شيخا مسنا منقادا له ولحزب تركيا الفتاة، وبعد جلوس السلطان عبد الحميد خان الثاني استقال محمد رشدي باشا الشيخوخته، وتولى الصدارة العظمى مدحت باشا وهي صدارته الثانية،

لم يرض الجنرال اغناتيف بهذه الاصلاحات بل أصر على بقاء انعقاد المؤتمر، فداوم اعماله وقدم لائحة إلى الباب العالي في ١٥ كانون الثاني (يناير) سنة ١٨٧٧ وطلب الجواب عنها في خلال ثمانية أيام ، فكانت من قبيل البلاغ النهائي (Ultimatum)

***

عقد المجلس العالي

ورفضه لائحة مؤتمر الاستانة

عقد الصدر الأعظم مدحت باشا مجلسا عاليا مؤلفا من الوزراء والمشيرين ورجال الدولة والرؤساء الروحيين وأعيان المسلمين والمسيحيين واليهود، وعرض عليهم لائحة المؤتمر، وأفهمهم مطالب الدول الاوربية وأن ردّها يؤدي إلى الحرب، فتشاوروا بكمال الحرية وأبدى كل منهم رأيه، فقال رؤف بك ابن رفعت باشا ناظر الخارجية الاسبق إذ ذاك: الحرب كداء الحمى يمكن ان ننجو منه، ولكن لائحة المؤتمر كداء السل الرئوي عاقبته القبر لا محالة. وقال صاوا باشا من خطبة طويلة: اننا نختار الموت على إهانة شرفنا، وألقى وكيل بطريرك الارمن الكاثوليك مقالة طويلة في رد اقتراحات المؤتمر

فرفض المجلس قبولها بالاتفاق وظهر من هـذا الاجتماع ائتلاف المسلمين والمسيحيين واليهود، واتفاقهم واتحادهم على محبة الوطن وترقيه والغيرة على منافعه ، وكان الروم والارمن الـكاثوليك أشـدهم حماسة ، حتى ان الروم عزموا عـلى تشكيل فرقة متطوعة لمحاربة الصرب مـع العسا كر العثمانية ، لان استقلال الامم البلقانية من الصرب والجبل الاسود والبلغار مضر بصالح الروم لانفصالهم عن الـكنيسة الارثوذكسية ، التي هي تحت رياسة بطريرك الروم في القسطنطينية ، ورفضهم استعمال اللغة والادبيات اليونانية ، فبناء على جميـع ذلك أجاب الباب العالي في ٢٠ كانون الثاني (يناير) برفض مطالب الدول المذكورة في لائحتهن ، فانفض مؤتمر الاستانة وغادرها المندوبون والسفراء دلالة على قطع العلاقات بين أوربا والباب العالي

تغلب حزب التقهقر

(وكتاب مدحت للسلطان)

كان الحزب المخالف للقانون الاساسي يسعى في التخلص من هذا القانون ، فبعد تعيين مدحت باشا في الصدارة انعقد مجلس الوكلاء برياسته في دار الداماد محمود جلال الدين باشا، وتذاكروا في القانون الاساسي، فارتأى أحمد جودت باشا ناظر العدلية (الحقانية) تأجيل هذا القانون لعدم الحاجة اليه (؟) بسبب جلوس السلطان الحالي !! ، وكان أحمد جودت باشا من المنتسبين الى الداماد محمود جلال الدين ، ومن كبار العلماء والمؤرخين، ولكن ارتشاءه مشهور في الاستانة والولايات ، واعلان القانون الاساسي يسد على المرتشين باب الارتكاب ، فبإصرار مدحت باشا وحزبه مثل ضيا بك وكمال بك وغيرهم من الاحرار الذين مر ذكرهم وبجريدتي (وقت)

و (استقبال) والمقالات الشائقة المحررة فيهما — صدر الخط الشريف السلطاني إلى مدحت باشا باعلان القانون الاساسي ، وحمله الباشكاتب سعيد بك الى الباب العالي ، وتلي في الميدان الواسع الذي امام الباب بحضور جماهير الناس ، وبعد تلاوته خطب مدحت باشا في الموضوع ، وتلا الدعاء فوزي افندي مفتي أدرنه وأمن الناس ، وما زال مدحت باشا يلح في طلب اجتماع المبعوثان ، ويجتهد في تأليفه من الاحرار ، والمابين يؤخر ذلك ويفرق جميع الاحرار ، حتى انه أراد تعيين ضيا بك مسود القانون الاساسي سفيراً في برلين لئلا ينتخب مبعوثا عن أهل الاستانة . فضاق صدر مدحت باشا من التأخير والمحاولة وكتب إلى الذات الشاهانية مباشرة:

« لم يكن غرضنا من اعلان القانون الاساسي الا محو الاستبداد ، وتعيين ما لجلالتكم من الحقوق

وما عليها من الواجبات ، وتعيين وظائف الوكلاء ومسئوليتهم ، وتأمين جميع الناس على حريتهم، حتى ترتقي البلاد في معارج الارتقاء — الى أن قال — واني لكثير الاحترام لشخص جلالتكم، ولكن الشرع الشريف يوجب عليّ أن لا اطيع اموركم (اوامركم) اذا لم تكن موافقة لمنافع الامة» ونحو ذلك مما لم يسمع بمثله إلا من مصطفى فاضل باشا كما تقدم . وبالحقيقة ان احكام الشريعة الاسلامية وفتاوى الفقهاء في هذا الصدد لا تترك أدنى شك ولا ريب ، لان السلطان بحكم الشرع ليس مطلق الحرية ، ولا مطلق التصرف في أموال الناس ومنافعهم ، وانما هو في جميع ذلك مقيد بالاحكام الشرعية « ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق . فالحكومة المطلقة

التي درجت عليها الدول والامارات الاسلامية وتوارثتها من عهد معاوية لا وجود لها على التحقيق في الدين الاسلامي .

عزل مدحت باشا ونفيه

وصدارة ادهم باشا

عزل مدحت باشا ونفي على الباخرة (عز الدين) الى ايطاليا ، ووجهت الصدارة العظمى إلى أدهم باشا والدحمدي بك وخليل بك مديري دار العاديات (الموزه خانه) ، وعين جودت باشا للداخلية ، وأحمد وفيق افندي لرياسة مجلس المبعوثان موقتا ، لان انتخاب الرئيس مبين في المادة السابعة والسبعين من القانون الاساسي

بعد خروج السفراء ومندوبي الدول من الاستانة العلية بعث البرنس غورجقوف ناظر خارجية روسيا الى الدول بمنشور مؤرخ في ٣١ كانون الثاني (يناير) يطلب فيه مداخلتهن بالاشتراك لاجراء الاصلاح في الممالك

العثمانية (!) ، والا اضطر القيصر وحده الى اتخاذ التدابير اللازمة في هـذه المسألة وأرسل الجنرال اغناتيف الى أوربا يقول: بما ان الباب العالي بدأ يخل بمعاهدة باريس، فتمام استقلال تركيا المشروط في تلك المعاهـدة أصبح واهياً لاغيا ، فترددت دول أوربا ولا سيما انكلترا في قبول هذا الكلام ·

انتخاب اعضاء مجلس المبعوثان

رأت الدولة العلية اصرار أوربا على اصلاح الروم ايلي فسارعت الى انتخاب المبعوثين وتطبيق احكام القانون الاساسي الذي نالت به الامة العثمانية الحرية وحق الحكم ، فلم يفقه الناس إذ ذاك معنى هذه الحرية ولا قدروها حق قدرها ، فظنوا أن المبعوثين كبقية الموظفين يشتغلون بمصالح الامة تحت سيطرة الوزراء

والنظار ، ليستفيدوا من الرواتب التي ينقدونها، فلم يعنوا بأمر الانتخاب كما يجب . حدثني بعض أحرار الاستانه قال كنا نحرض الناس على الانتخاب ونسوقهم اليه سوقا، وهم يقولون : ألم يكفنا ما لدينـا من المجالس والدوائر المشحونه بالموظفين حتى نزيد عليها مجلسا جـديدا وتتكبد القيام برواتب موظفيه ؟ فان لم تصلح حالنا وتنتظم إدارتنا بجميـع ما نراه امام أعيننا من النظارات والدوائر العظيمه المشتملة على الالوف من الموظفين أتراه يصلح بمجلس المبعوثان ؟ ؟

هذا ما كان يقال في قاعدة السلطنة ومقر الخلافة ، فما بالك بمراكز الولايات والالوية ، اذ كان المنتخبون لا يوصون مبعوثيهم الا بطلب الرتب والاوسمة والالقاب والمناصب والمخصصات والرواتب لهم ولاقاربهم وذويهم !! ولمن لاذ بهم وحام حول حماهم ، أو بإعفائهم من التكاليف الاميرية والخدمة العسكرية وتخفيف الضرائب والمكوس

عنهم ونحو ذلك ! ، مما يعود على الوطن بالخراب لا بالعمران ، كأن خزينة الدولة كنز لا يفنى ، تمطر عليه الاموال من رحمة الله بغير عد ولا حساب

***

﴿ افتتاح مجس المبعوثان وخطاب السلطان ﴾

افتتح المجلس العمومي المؤلف من الاعيان والمبعوثان في ٤ ربيع الاول سنة ١٢٩٤ و ١٩ مارت (مارس) سـنة ١٨٧٧ في بهو الاستقبال الكبير في سراي طولمه باغجه بمحـلة بشكطاش ، وتلي النطق السلطاني امام الحضرة السلطانية وهو :

« أيها الاعيان والمبعوثان

« اني ابدي الامتنان بافتتاح المجلس العمومي الذي اجتمع للمرة الاولى في دولتنا العلية ، وجميعكم تعلمون ان ترقي عظمة واقتدار الدول والملل انما هو قائم بالعدل ،

وان ما انتشر في العالم من قوة دولتنا العلية وقدرتها في أوائل ظهورها كان من مراعاة العدل في سير الحكومة ، ومراعاة حق ومنفعة كل صنف من صنوف الرعية . وقد عرف العالم أجمع تلك المساعدات التي قام بها أحد أجدادنا العظام المرحوم السلطان محمد خان الفاتح في مطلب حرية الدين والمذهب ، وجميع اسلافنا العظام أيضا قد سلكوا على هذا الأثر ، فلم يقع في هذا المطلب خلل في وقت من الاوقات ، ولا ينكر أن المحافظة على السنة صنوف رعيتنا وقوميتهم ومذاهبهم منذ ستمئة عام كانت النتيجة الطبيعية لهذه القضية العادلة . والحاصل بينا كانت ثروة الدولة والملة (الامة) وسعادتها صاعدتين في مدارج الترقي في تلك الاعصار والازمان بفضل حماية العدالة ووقاية القوانين ــ اخذنا بالانحطاط تدريجيا بسبب قلة الانقياد للشرع الشريف وللقوانين الموضوعة ، وتبدلت تلك القوة بالضعف ..... » الخ

ثم ذكر تنكيل السلطان محمود بالانكشاريه وسبقه لفتح باب إدخال مدنية أوربا الحاضرة الى الممالك العثمانية واقتفاء السلطان عبد المجيد خان أثره ، واعلانه اساس التنظيمات الخيرية... الخ النطق السلطاني المعروف

قابل الجميع هذا النطق بالخضوع والركوع (!!!) وخصص لاجتماع المبعوثين بهو كبير في سراي العدليه (الحقانية) بالقرب من اياصوفيا تحت رياسة أحمد وفيق افندى الذي صار بعد ذلك باشا، وعين للرياسه بإرادة سنيه لا بالانتخاب ولذا كان رقيبا على مدحت باشا، وقد اتهمه حزب تركيا الفتاة بالاستبداد لان رياسه مجلس المبعوثان شبيهه بوظيفه رئيس الموسيقي المركبه من آلات كثيرة مختلفه، لكل آله توقيع خاص ، فعلى الرئيس أن يلاحظ موازنه الانغام وائتلاف بعضها ببعض، لتخرج جميعها بصورة مقيدة وليس له ان يأخذ آله من الآلات الموسيقيه ويضرب عليها ليوازن ما بينها

* * *

مذاكرات مجلس المبعوثان

كانت الجلسة الاولى مخصصة للمذاكرة في العريضة التي ينبغي تقديمها من مجلس المبعوثان جواباً عن النطق السلطاني ، فحررت مسودة الجواب واسقط الكاتب منه كلمة «السنة» في الجواب عن فقرة «المحافظة منذ ست مئة عام على السنة ...» المذكورة في النطق السلطاني ، فقام أحد مبعوثي الروم من الاستانة وقال ما محصله : «لا يمكننا ان نقبل إسقاط كلمة تدل على أثمن امتياز نلناه ، لان لساننا — نحن معشر الروم — هو ثروتنا ، فمن سوء الفهم وقلة الادب نحو جلالة سلطاننا الاعظم ان نمحو كلمة أثبتتها جلالته بنفسها وكررت منحنا ذلك من جديد» فقال الرئيس : ليس بحثنا في ذلك لانا لا نعرف في هذا المجلس لسانا غير اللسان العثماني الرسمي . فقال

جمهور العثمانيين : «بك أعلى ! بك أعلى !!» أي حسن كثيرا حسن كثيرا ، فقام مبعوث أرمني وأيد كلام المبعوث الرومي ، فقال الرئيس ثانية : ليس بحثنا في ذلك ، ومع هذا فاني أسأل أعضاء المجلس عما اذا كانت آراؤهم موافقة لرأيي؟ فقال جمهور المبعوثين : «أوت أفندم! أوت أفندم !» أي نعم ياسيدي ! نعم ياسيدي!

***

﴿ بروتوكل لوندره ورفضه ﴾

سمي جمهور المبعوثين بعد ذلك (أوت افندم) لتصديقهم على كلام الرئيس من دون مناقشة ولا مباحثة ، ولكن كان فيهم — والحق يقال — فئة عارفين بمصالح الدولة وطرق الاصلاح ، جسورين على التكلم والدفاع عن حقوق الامة والمناضلة في سبيل منافعها ، غير ان الحال كانت ذات خطر شديد لان العدو كان يتأهب

للحرب على الحدود، فأراد رئيس المجلس تحويل المذكرات الى المسائل الخارجيه لان مندوبي الدول الست الذين عقدوا مؤتمر الاستانه اجتمعوا في لونده وليس للدولة العليه مندوب معهم، ووقعوا بتاريخ ٣١ مارت (مارس) سنة ١٨٧٧ على (بروتوكل) أي مضبطة طلبوا فيها من الباب العالي عقد الصلح مع الجبل الاسود، والتفرغ له عن نحو عشرين ناحية من املاك الدولة العلية لكون لسانهم سلافيا ودينهم مسيحيا !!! كما طلبوا اجراء الاصلاحات الموعود بها تحت مراقبة الدول وإشرافها وغير ذلك، وأبلغوا هذه المضبطة الى الباب العالي في ٣ نيسان (ابريل) سنة ١٨٧٧

جاء ناظر الخارجية الى مجلس المبعوثان وقرأ على أعضائه ترجمة البروتوكل وشرح لهم أحوال السياسة الخارجية وأفهمهم ان رد البروتوكل تكون نتيجته اعلان روسيا للحرب علينا، وليس للدولة العلية عضد من بقية

الدول كما كان لها في حرب القرم ، ولا نقود في خزائنها وكرر عليهم ماقاله مدحت باشا في المجلس العالي لدى مذاكراته في لائحة مؤتمر الاستانة ، وكانت أكبر الصعوبات من العسرة المالية ، وشـدة الاحتياج الى التجهيزات العسكرية . فاعترض أكثر المبعوثين على قبول البروتوكل ، وأظهروا من الحماسة والغيرة الوطنية مالامزيد عليه ، وكان مبعوثو الارناؤط المجاورة بلادهم للجبل الاسود أشدهم اعتراضا ، وقام مبعوث الاكراد فقال ماملخصه : تزعمون أن المالية في ضيق شديد فكيف يمكننا تصديق ذلك وأنتم في هذه البهرجة والالبسة الغالية والدور المفروشة بأحسن الاثاث والرياش والعربات والخيل المطهمة ؟ تعالوا الى عندنا في كردستان وانظروا بؤس العيش ومرارة الحياة التي نحن فيها !! لما كنت في بلادي لم يكن علي إلا ألبسة مرقعة بالية كبقية اخواني من أهالي كردستان ، ولما رأيتكم

ترتدون أحسن الالبسة وتتألق على صدوركم النياشين المجوهرة خجلت من نفسي فاشتريت الثوب الذي ترونه عليَّ من سوق الدلالين !! وأنا مرهق ، لا من المخازن الكبيرة وأنا موسر ، واذا كانت سلامة الوطن والمحافظة عليه تقضي عليَّ ببيعه فأنا أبيعه وأنا مغبوط وأعود الى ثوبي المرقع .

ثم قال الرئيس في ختام المذاكرة : هل يقبل المجلس ماجاء في البروتوكل لملاحظات ناظر الخارجية ؟ فرفض المجلس قبوله بالاكثرية ، وكانت الاقلية ثمانية عشر صوتاً من الروم المبعوثين عن الروم ايلي ومن الارمن . فنظم الباب العالي نشرة مؤرخة في ٩ نيسان (ابريل) سنة ١٨٧٧ احتج فيها على بروتوكل لونده المنظم بدون اطلاعه وانضمام رأيه ، وقال : ان تكليف الباب العالي اجراء الاحكام على مايقضي به هذا البروتوكل مخالف لاستقلال المملكة العثمانية الذي اقرته الدول في معاهدة باريس ،

فقرئت هذه النشرة على مجلس المبعوثان فاستحسنها وأقرها وشكر الباب العالي على تنظيمها فأجاب عنها البرنس غورجاقوف في بطرسبرج بنشرة رفعها الى الدول في ١٩ نيسان (ابريل) مضمونها : ان الباب العالي رفض اجراء الاصلاح الموعود به فصارت الحرب ضرورية لان روسيا مضطرة الى إيفاء واجباتها نحو الاهالي المسيحيين ! ! !

فأجاب الباب العالي بنشرة أخرى للدول قال فيها: ان تركيا لا ترفض اجراء الاصلاحات وانما ترفض الاشراف والمراقبة على اعمالها ، لان في ذلك غمطا لحقها وإزراء بشرفها وعبثا باستقلالها الذي أقرت عليه الدول الموقعة على معاهدة باريس . وصارت النشرات والمحررات السياسية تتطاير من عواصم أوربا والانذارات والمذكرات تتساقط على السفراء ونظار الخارجية فلم يجد ذلك نفعا بل أعلنت الحرب في ٢٤ نيسان (ابريل) سنة ١٨٧٧

٭ ٭ ٭

﴿ مناقشات مجلس المبعوثان وانفضاضه ﴾

بحث المجلس بعد ذلك في لائحة نظام الولايات وتشكيل مجالس الادارة وذكر في اللائحة ان مجلس ادارة الولاية يتألف من ستة أعضاء ينتخب نصفهم من المسلمين والنصف الآخر من المسيحيين، فاعترض بعض المبعوثين على هذا التخصيص الذي هو داعية للتفريق ، وقالوا إن القانون الاساسي أطلق على جميع الرعية اسم (عثمانيين) من دون تفريق بينهم في الدين والمذاهب، وان الاكثرية في مجالس الادارة تكون من حق المسلمين، لان الموظفين كالوالي والدفتردار (رئيس الحسابات) والمكتوبجي (رئيس الكتاب)ونحوهم أعضاء دائمون في مجلس ادارة الولاية ، وطلبوا إخراج المفتين من بين الاعضاء الدائمين لكونهم بمثابة الروساء الروحيين :

فقال الرئيس : ليس للمفتين صفة دينية كصفة الرؤساء الروحيين ، ورغم انتشار هذا الزعم الفاسد فالمفتي ماهو الا مأمور القانون أي المحامي عن القانون والشريعة" وليس له سيطرة على المسلمين كسيطرة الرئيس الروحي على ابناء ملته ، وانما هو من علماء الحقوق المعروفين عند الافرنج باسم (Jurisconsulte) واعترضوا أيضا على تسمية (متصرف)فقالوا ان هذا الاسم مشتق من التصرف الدال على الاستبداد والاذلال والاستعباد، فهو لا يوافق روح الحرية والمساواة واستعلم بعض المبعوثين عن احوال معسكر الاناضول ونقصان التجهيزات العسكرية" وعلى تعيين أحد الخدمة قائمقام وقد كان (شوبقجي) أي حامل قصبة التدخين عند بعض الكبراء، الى غير ذلك.

ثم اشتغل مجلس المبعوثان بتدقيق ميزانية المالية" وطلبت الحكومة خمسة ملايين ليرة عثمانية للدخول في الحرب فتألفت لجنة (Commission) من احد عشر مبعوثا للتذرع

بالوسائل المؤدية الى الحصول على المبلغ المطلوب. فحاولوا اقتراضه من إنكلترا على ان يكون لها في مقابل ذلك وارادات مصر كما فعلوا قبلا فرفضت إقراضهم لان التأمينات غير كافية، فقرروا عقد قرض داخلي بفائدة عشرة في المئة من وارادات أصحاب الاملاك والتجار، واخذ راتب شهرين من أصحاب الرواتب فصدق مجلس المبعوثان على هذا القرض وعلى كل ماطلبته الحكومة منه وختم جلساته في تموز (يوليو) سنة ١٨٧٧ فقال الرئيس: ارجعوا إلى ولاياتكم وأعيدوا الانتخابات واجتهدوا بأن ترسلوا الينا مبعوثين أوفر عقلا وأكثر وقوفا على ماتحتاج اليه البلاد !!!

فيرى من ذلك ان مجلس المبعوثان — على ضعفه وعجزه وجهل اعضائه في السياسة والادارة — لم يكن منه قصور أو تقصير في وظائفه، ولم يحصل فيه اختلاف شديد بين المسلمين والمسيحيين، وانما كانوا جميعا

متفقين على مقاومة الاستبداد ومنع التعدي وتبذير الاموال ، وكل منهم عارف بمصالح بلاده الخاصة ، لان معرفة ذلك لا تحتاج الى علم كبير أو رأي ثاقب لبداهتها ووضوحها كالشمس في رابعة النهار ، غير أن الواقفين منهم على مصالح الدولة العامة وسياستها الخارجية كانوا أقل من القليل ، والحكومة ابت ان تعترف لهم بحق ، بل نظرت اليهم نظر الوصي إلى الصبي !!!

الحرب الروسية العثمانية

استمرت الحرب الروسية العثمانية ثمانية أشهر (نيسان ـ كانون الاول سنة ١٨٧٧) وابرزت الجنود العثمانية فيها من الشجاعة والصبر والثبات والقوة ما دلّ على حياة الامة وفتوتها وسلامة جسمها من اعراض الهرم أو المرض الذي يصفها به العدو ، ولكن نقصان التجهيزات

العسكرية وسوء الإدارة كانا سببا في انتصار الروس في أوربا وآسيا، وتجاوزهم نهر الطونة (الدانوب) وجبال البلقان، وأخذ القرص ومحاصرة ارضروم من جهة الاناضول، وفتح بلفنا في الروم ايلي . ولقد أظهر عثمان باشا وعسكره من الشجاعة والمقاومة ماحير الروس وأوربا كلها فاعترفوا بفضلهم وقدروهم قدرهم «والفضل ماشهدت به الاعداء»

طلب مدحت باشا

(وانتخاب المبعوثان ثانية)

استنزفت هذه الحرب ثروة البلاد واضعفت قوتها وافرغت صناديق الحكومة من الاموال، لكثرة الإنفاق وانقطاع الوارد اليها من التكاليف والرسوم، فتقرر إعادة التئام مجلس المبعوثان وطلب مدحت باشا من أوربا، وعقد قرض لوندره، وعقد الصلح مع روسيا،

فجرى انتخاب ثان بأمور (أوامر) مؤقتة لا كما يقضي نظام انتخاب مجلس المبعوثان

٭٭٭

﴿ افتتاح مجلس المبعوثان مرة ثانية ﴾

وخطاب السلطان فيه

افتتح مجلس المبعوثان مرة ثانيــة في يوم الخميس الواقع في ٧ ذي الحجة سـنة ١٢٩٤ و١٣ كانون الاول (دسمبر) سنة ١٨٧٧ فذهب الوكلاء الفخام والوزراء الكرام والعلماء الاعلام واعضاء مجلس الاعيان والمبعوثان وسفراء الدول الاجنبية الى سراي بشكطاش واصطفوا على الصورة الآتية : فـكان عن يمين الحضرة العلية السلطانية أدهم باشا الصدر الاعظم ووكلاء الباب العالي ثم موظفو المجالس العاليــة ثم رؤساء المذاهب المختلفة ثم اعضاء شورى الدولة ومستشارو النظارات المختلفة

وكثيرون من أعيان رجال العسكرية والملكية بحسب رتبهم ومقاماتهم، وكان عن شماله حضرات شيخ الاسلام والشريف عبد المطلب أمير مكة المكرمة قبلا ثم العلماء من رتبة قاضي عسكر الروم ايلي والاناضولي ثم (الفريقان) الكرام وفريق من العلماء الاعيان . وكان اعضاء مجلس الاعيان أمام الحضرة العليـة السلطانية من ناحية اليمين على صفين ، واعضاء مجلس المبعوثان امامها من ناحيـة الشمال على تسعة صفوف ، وفي الساعة السادسة على الحساب العربي دخل السلطان الاعظم وسلم الرقيم المشتمل على نطقه لسعيد باشا باشكاتب المابين فتلاه على الحاضرين وهو :

« يا أيها الاعيان والمبعوثان

« انني اكتسبت الممنونية بفتح المجلس العمومي وبمشاهدة مبعوثي الملة (الامة) ــ ثم ذكر الحرب مع روسيا والمحافظة على الملية أي القومية واللغات وحق

المساواة وادخال غير المسلمين من الرعية في الجندية والمحافظة على القانون الاساسي وإصلاح المالية والعدل في جباية الاموال الاميرية وتنظيم القوانين — وختمه بقوله :

« يا أيها المبعوثان

« ان ابراز الحقائق في المسائل القانونية والسياسية وضمان منافع البلاد يتوقفان على مجاهرة أرباب الشورى بأفكارهم بالحرية التامة ، وبما ان القانون الاساسي يقضي بذلك فانني لا أرى احتياجا إلى أمر أو ترغيب آخر »

* * *

﴿ مذاكرات مجلس المبعوثان ﴾

ثم انعقد مجلس المبعوثان في الدائرة الخاصة به تحت رياسة حسن فهمي افندي (وهو اليوم باشا من النظار) وشرع المبعوثون في المذاكرات والمباحثات بقية شهر

كانون الاول (دسمبر) وكانون الثاني (يناير) وأوائل شباط (فبراير) سنة ١٨٧٨ وكثر الجدال بين المبعوثين وبين الحكومة — لا بين الاعضاء المختلفين في الدين واللسان — وطلب بعضهم التدقيق في حسابات المالية ، وحضور ناظرها لمناقشته الحساب ، ومحاكمة المرتكبين ، وسؤال المتهمين باختلاس الاموال الاميرية ، وسوء الاعمال المختلفة المتعددة ، وقام أحد المبعوثين وقال : إن الجاندرمة (١) في الولاية التي بعثت منها تنهب الاهالي ، والمحاكم ترتشي على إبطال الحق وإحقاق الباطل ، والضابطة تعذب المحبوسين بالضرب وأنواع العذاب . واعترض مبعوث آخر على المذابح التي جرت في بلغارستان وطلب التحقيق والبحث عنها . وطلب جماعة من المبعوثين عزل خمسة من الوكلاء :

(١) المراد بالجاندرمة رجال الشحنة والشرطة المكلفون بحفظ الامن والمساعدة على تحصيل الضرائب

منهم محمود جلال الدين باشا وسعيد باشا وكجوك سعيد باشا ، والتحقيق عن كثيرين من رجال الدولة وقواد العساكر ، ولا سيما عن الاختلاس والاسراف في نظارة البحرية وغير ذلك .

***

﴿ الغاء الصدارة واستبدال مجلس الوكلاء بها ﴾

بعد ذلك تولى الصدارة أحمد حمدي باشا المعروف في ولاية سوريا ، وذكر في فرمان التولية « إن اعتزال أدهم باشا مدة للاعمال كان مراعاة لصحته هذا مع التسليم بنزاهته ودرايته ، ونحن رضوان عنه من كل الوجوه أتم الرضى .. » الخ . وبقي حمدي باشا في الصدارة بضعة وعشرين يوما ، وفي غرة صفر سنة ١٢٩٥ و ٤ شباط (فبراير) سنة ١٨٧٨ صدر الفرمان القاضي بإلغاء لقب (صدر أعظم) واستبدال رئيس الوكلاء به ،

وتوجيه هذه الرياسة إلى أحمد وفيق باشا رئيس مجلس المبعوثان مع رتبه الوزارة ، وتعيين مسئولية (تبعـة) الوكلاء أي النظار كما هي الحـال في وزارات أور با ، فحضر (الباش وكيل) الافخم إلى مجلس المبعوثان وقال لهم ما ملخصه :

« إن جلالة السلطان الاعظم تريد في الحقيقة باطنا وظاهرا إدارة الملك كما تقضي احكام القانون الاساسي ، ولذا استبدلت رياسة الوكلاء بمسند الصدارة . فالوزارة الجديدة المؤسسة على قاعدة المسؤلية لا ترغب إلا في سلامة الدولة وترقيها ، والوكلاء مستعدون للحضور دائما الى المجلس عند الطلب ، ولـكنهم يرجونه ان يقبل في بعض الاحيان وكلاء عن اعضائه لكثرة شواغلهم وحرصا على أوقاتهم ! ! ! »

فقام أحد المبعوثين وقال ما خلاصته :

« ان مجلس المبعوثان له الحق وحده ومن شأنه

خاصة إحداث تغيير عظيم مثل هـذا التغيير ، تقولون دائما انكم تريدون المحافظة على القانون الاساسي ، إذاً فاحترموا حريتنا لاننا نحن الذين نمثل القانون الاساسي ونحافظ على احكامه ، وأنتم الذين تحاولون نقضه وإبطاله ... » فأحيلت المسألة على لجنة (Commission) مخصوصة لتدقق فيها في ٥ شباط (فبراير) وكانت الحرب أوشكت أن تضع أوزارها ، وعساكر روسيا استولت على أدرنه وتجاوزتها ، وطلبت أوستريا (النمسا) أن تجمع في فينا مؤتمرا من مندوبي الدول الموقعة على معاهدة باريس لتنقيح المعاهدة الجديدة بين تركيا وروسيا ، والتوفيق بين أحكامها وأحكام المعاهدات القديمة ، وبعثت انكلترا بأسطولها الى بحر مرمره في ١٤ شباط (فبراير) سنة ١٨٧٨

***

﴿ المجلس العالي ﴾

تداخلت دول أوربا في المسألة الشرقية بعد ان تركن روسيا تفعل ما تريد في الحرب ، وعدن الى المناقشات والمحاورات — على عادتهن — في هذه المسألة فاعتمد المابين على ما بينهن من الاختلاف واستغنى عن مجلس المبعوثان فألف في ١١ شباط (فبراير) سنة ١٨٧٨ مجلسا عاليا من وكلاء الدولة ورجالها وأعيانها والروساء الروحيين ، وطلب من مجلس المبعوثان خمسة أشخاص : الرئيس ووكيله وأحد مبعوثي الاستانة وهو الحاج أحمد افندي كتخدا الاسترجية (الكدش) ومبعوث آخر يهودي ، فقال لهم الحاج أحمد افندي ان طلبكم الآن رأينا في غير محله ، فقد كان يجب عليكم أن تسألونا قبل الخراب ، فمجلس المبعوثان يتنصل من كل

تبعة تلقى عليه لامر وقع بغـير علمه ، ولم يكن برأي من آرائه ، وكرر القول بأن المجلس يرفض كل تبعـة في الحال الحاضرة .

***

﴿ تعطيل مجلس المبعوثان الى أجل غير مسمى ! ﴾

صمم السلطان حينئذ على العدول عن سياسة والده الماجد السلطان عبد المجيد خان في عمل الاصلاح باطلاق الحرية والعمل بمقتضى أحكام القانون الاساسي ، وجنح لسياسة جده السلطان محمود خان في إعمال القهر والاستبداد ، مفضلا هـذه السياسة اعتقادا منه أن الشعوب التي وضعها الله تحت يده لا يمكن تسييرها إلا بالقوة ! . وكان المندوب الروسي قد حضر إلى الاستانة فلم يسر بوجود مجلس المبعوثان لخلو بطرسبرج من مثله ،

واستبداد القيصر برعيته ، ففي ١٤ شباط (فبراير) سنة ١٨٧٨ قرأ الرئيس حسن فهمي افندي على المبعوثين منطوق الارادة السنية القاضية بتعطيل مجلسهم الى أجل غير مسمى !!!

***

﴿ استخذاء المبعوثين والامة ﴾

لتعطيل مجلس المبعوثان وأسبابه

خرج المبعوثون يتعثرون بأذيالهم ، وأنذرت الضابطة المتطرفين منهم والجسورين على التكلم وإيقاظ افكار الامة بوجوب المهاجرة من الاستانة ! فذهب بعضهم إلى الولايات العثمانية وبعضهم الى مصر والبلاد الاجنبية. ولم تقلق الامة أو تتأثر من هذا الاحتقار والامتهان، ولا حصل منها هيجان أو اعتراضات ! كأنها جمل المحامل

يصرفه الصبي بكل وجه

ويحبسه على الخسف الجرير

وتضرب به الوليدة بالهراوي
فلا غِيَر لديه ولا نكير

ولم يبق من المبعوثين من أصر على مبعوثيته الى آخر نفس من حياته إلا أفراداً قلائل كمبعوث القدس الذي كان - بجراءته - يثبت على بطاقة الزيارة (Carte-visite) انه مبعوث القدس ، ويقدمها الى وزراء الدولة ورجالها لدى زيارته لهم في الاستانة ، والى سفراء الدول الاجنبية وموظفي نظارة الخارجية في أوربا . ولما اجتمع بصديقه خليل غانم مبعوث بيروت في الاجتماع الثاني للمجلس ومنشيء المقالات الرنانة في جريدة الديبا وغيرها من جرائد باريس وذلك قبيل وفاتهما - آخذه لكتابته في بطاقة الزيارة كلمة المبعوث السابق (Ex-Député) فمحا كلمة «سابق» لان صفة المبعوثية انما هي بارادة الامة وانتخابها فهي لا تزول عن صاحبها إلا بانتخاب آخر ، ومجلس المبعوثان لم يُلغ إلغاء وانما عطل الى أجل غير محدود ،

فكان اجتماعه في كل سنة من قبيل الممكنات الجائزة عقلا ونظاما . ولكن أ كثر المبعوثين تناسوا وظيفتهم كأنها وظيفة حقيرة لا يؤبه لها وقد عزلوا منها ولم يجسر احد على ذكرها في ترجمة حاله الرسمية، ولم يذكرهم بها مذكر ولا وعظهم واعظ !! ولا حررت في هذا الموضوع جريدة من جرائد المملكة العثمانية

ان لهذا السكوت والاستخذاء اسبابا كثيرة : منها ان الحرية أمر تستحوذ عليه الامة بالغلبة والاستيلاء، وليست مما ينعم به انعاما أو تعطى جزافا ، ولقد كانت الامة حينئذ منهوكة القوى مكسورة الجناح بسبب الحرب، لا دار الا وفيها مأتم ، ولا أسرة الا وقد أصابتها مصيبة وزاد البلاء بسبب البحران المالي، ونزول قيمة المسكوكات (النقود) فكانت الاسرة تبعث خادمها الى السوق ليشتري القوت الضروري فيعود اليها خاوي الوفاض لعدم رواج النقود، فتطوي على الجوع وتتفتت أ كباد

الوالدين لبكاء اطفالهم . ثم ان الامة هي عبارة عن أهل العاصمة منبع الاستبداد وأهالي الولايات والقرى ، والعساكر المنظمة ، المدربة على الحرب المسلحة بالاسلحة الجديدة والمدافع ، فأما أهل الاستانة ولاسيما المسلمون فانه لايتصور قيامهم لطلب الحرية لان جلهم — ان لم تقل كلهم موظفون أو عائشون في ظل الموظفين ، والعساكر المسلحون واقفون لهم ولاهل الولايات بالمرصاد ، وقادرون على إخماد نار اية ثورة أو مظاهرة ، وان قيام طائفة مسيحية وحدها لطلب الحرية مما لايرضى به المسلمون ولا بقية الطوائف المسيحية اواليهوديه ، كما شاهدنا ذلك في أرمينيا ومقدونيا التي اشتدت فيها المناقشة بين الروم والبلغار والصرب والرومان ، كما أن العساكر وحزب الاحرار العقلاء لايرضون به ، لان قيام كل ملة على انفراد يقضي بتقسيم الممالك وتفريقها وضعفها ، وإثارة اضغان العداوة الموروثة من الحروب الصليبية والقرون

المتوسطة المظلمة» على ان هذا القيام كان مصدره الكنائس والاديار بإيعاز الرهبان والقسيسين والمبشرين والمرسلين ، فكان سببا لايجاد المذابح والفظائع ومداخلة الاجانب

أما حزب تركيا الفتاة الذي أسسه مصطفى فاضل باشا وخليل شريف باشا فانه لم يكن في عهد مدحت باشا الا فئة قليلة من صغار الموظفين وضباط العساكر والمتعلمين في المدارس الجديدة ، والذين درسوا شيئا من اللسان الفرنسي أو الانكليزي ، واشتهروا باسم « انكلز » لتعلمهم الانكليزية فقط ، مثل : انكلز سعيد باشا ، انكلز كريم افندي ، انكلز علي بك والد أحمد رضا بك روح هذا الانقلاب ، أو الذين أصلهم من الاوربيين فأسلموا ودخلوا في الوظائف ، مثل عمر باشا المجري ، ونوري بك ابن المركي دوشاتونيف الفرنسي ، وكثير غيرهما ، أو الذين تزوجوا بنسوة أوربيات وربوا أولادهم تربية

افرنجية أو غير ذلك، فكانت هذه الفئة متحدة الفكر في إعجابها بالمدنية الاوربية وميلها اليها ولم تكن لهم جمعية ولا رابطة غير الرابطة المعنوية الفكرية، لانهم من موظفي الحكومة والوظائف تضطرهم الى إخفاء الرأي واطاعتهم لآمريهم إطاعة يفرضها العقل والسياسة والا كانت الامور فوضى، ولكن الجامدين من المسلمين لم يفرقوا بين الدين المسيحي والمدنية الاوربية، واعتبروا كل إصلاح صدر من أوربا المسيحية مخالفاً للدين والآداب الاسلامية، وشتان ما بين المدنية الاوربية والدين المسيحي.

سعاوي افندي وحادثة چراغان

على ان بعض المتطرفين من حزب تركيا الفتاة ثاروا بزعامة علي سعاوي افندي، وكان من طلاب العلم المعروفين بالصوفتاوات، مطلعاً على العلوم العربية والفنون

الرياضية ، وواقفا على الافكار الجديدة . نفي في أيام السلطان عبدالعزيز وصدارة عالي باشا ،وفر الى باريس ولوندره ونشر ثمة الرسائل والمقالات ، وكان ينفق على نفسه فيهما مما ينفحه به رجال الاستانة ،ثم عاد اليها وصار من حزب مدحت باشا انصار القانون الاساسي ،وعين مديراً للمكتب السلطاني ثم عزل ، فاتفق مع صالح بك الارناؤط أحد الضباط وجمعا فئة من المهاجرين فكانوا زهاء مئة رجل ،وهجموا على سراي جزاغان لاخراج السلطان مراد منها ومبايعته ، واسترداد الحرية والقانون الاساسي ،ففاجأتهم العساكر بالسلاح فشتت شملهم . وكانت هذه الحادثة في ١٣ مايس (مايو) سنة ١٨٨٧ زمن رياسة صادق باشا لمجلس الوكلاء

صدارة رشدي وصفوت

«وخير الدين التونسي»

لبث أحمد وفيق باشا (باش وكيل) لمجلس الوكلاء مدة قليلة ، ثم وجهت الى صادق باشا فبقي فيها تسعين يوما ، ثم استبدلت الصدارة (بالباش وكالة) وعين فيها رشدي باشا ودام فيها ثمانية أيام ، ثم عين لها صفوت باشا ناظر الخارجية فاكتسب فيها ثقة الحضرة السلطانية ولم تطل فيها مدته ، وعين لها خير الدين باشا الجركسي الاصل والتونسي النشأة ، وهو مؤلف التاريخ العربي « أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك » وله وقوف على العلوم العربية وعلى الفرنسية ، وتجول في ممالك أوربا ، وقد طلب منها في سنة ١٢٩٤ هـ كما طلب السيد جمال الدين الافغاني وغيره ، وعين رئيس الشورى

الدولة ثم (صدر أعظم) سنة ١٢٩٥ وبقي في الصدارة ثمانية أشهر ، ثم استقال وبقي حِلس بيته الى أن توفي سنة ١٣٠٧ في الاستانة . فكان في طلبه وتوظيفه شبه ميل الى سياسة الجامعة الاسلامية (Panislamiseme) ولكن هذه السياسة لها معنيان: المعنى القديم الاستبدادي الذي مشى عليه خلفاء بني أمية والعباسيين ، وهو مخالف لحقيقة الاسلام ، ومنافٍ لروح العصر الجديد والمدنية الحاضرة — والمعنى الحديث وهو يوافق أصل الاسلام والمدنية ، ولكنه يخالف مسلك المستبدين بالامر ، ويحول بينهم وبين مآربهم ، وهو أشد وطأة عليهم من القانون الاساسي! وحزب تركيا الفتاة .

صدارة كجوك سعيد باشا واعماله

ثم عين لمسند الصدارة سعيد باشا المشهور بسعيد باشا الصغير (كجوك سعيد) تمييزا له عن سميه ناظر الداخلية

الكردي الاصل والمتوفى قبل بضع سنين . وكان سعيد باشا الصغير محررافي جريدة «حوادث» فاتصل بالداماد محمود جلال الدين باشا ودخل بوساطته المابين وصار باشكاتبٍ له، وهو المتسبب في إبعاد مدحت باشا وتعطيل احكام القانون الاساسي، وإعلان الحرب، وعزل القائد (السردار) عبد الكريم باشا وإخلائه موقع (بيَلْه) امام بلفنا، ومداخلة المابين في إدارة جميع الشؤون العسكرية، واصدار الامور من السراي السلطانية اثناء الحرب، وتقسيم المملكة العثمانية في معاهدة سان ستفانو التي نقحتها معاهدة برلين .. الخ فان الارادات السنية في جميع ذلك كانت تصدر برأي سعيد بك باشكاتب المابين وتوقيعه، ولهذا كان مبغوضا من حزب تركيا الفتاة لانه كان آلة وعونا على الاستبداد، وعلى إدارة المصالح من دون رأي الباب العالي، مع أن باشكاتب المابين كان لذلك العهد ينتخب من قِبل الصدارة العظمى، وكان الصدور لا

ينتخبون لهذه الوظيفة إلا الذي يعتمدون عليه لعرض المضابط والمقررات والانهاآت (المطالب) واستصدار الارادات السنية بها ، ولم يكن للباشكتاب نفوذ معارض لنفوذ الباب العالي صاحب التقاليد والاصول المرعية في ادارة المملكة ، ولا سيما في أيام رشيد باشا وفؤاد باشا وعالي باشا ، فلما توفي عالي باشا وتولاها محمود نديم تدنت أهميتها بسبب نفاقه وتملقه للمابين وتقديمه أموال الخزينة اليه بغير عد ولا حساب ، ولما ولي سعيد باشا الباشكتابة زالت مكانة الصدارة بتة ، وانحصرت الاعمال والادارة في المابين ، وصار للباشكاتب نفوذ يمكنه ان يطلب مدحت باشا الصدر الاعظم الى المابين ويبلغه الارادة القاضية بنفيه على الباخرة عز الدين !!

تولى سعيد باشا الصدارة بعد مدحت واشتهر بالنزاهة والاستقامة ، فلم يسمع عنه ارتكاب ولا انهماك في جمع الاموال وادخارها ، ولهذا كان أقل الصدور ثروة ، وكان شديد السطوة على المرتكبين ، كثير البطش بهم والاستبداد

فيهم ،ولكنه عادل في احكامه وعقابه. وفي زمن صدارته وضع نظام المعارف ، وأسست المدارس على النسق الجديد ،وصار للمعارف مورد واف من واردات الحصة التي أضيفت الى الاعشار،ونظمت نظارة العدلية وأصول المالية ، وأسست إدارة الديون العمومية ، وبوشر في مد بعض الخطوط الحديدية واصلاح الطرق والمعابر، من دون ان يؤدي اعطاء امتيازاتها الى ارتكاب فاحش ، فكان أصلح الصدور في الدور الاخير ،ولم ينتقد عليه حزب تركيا الفتاة الا استبداده ومقاومته مشروع مدحت باشا وتوقيف أحكام القانون الاساسي وجميع ماصنعه وهو رئيس كتاب المابين ،

لم يصد سعيد باشا كونه من رجال الكامريلا — لانه نشأ وتربى في المابين — ان يحاول الاستقلال في وظيفته واعلاء شأنها ورفع مكانتها ، وتمشية المصالح بالعدل على قاعدة مطردة وأصول منظمة ،كما كانت عليه في زمن عالي

باشا ، فأصبحت بذلك أعمال سعيد باشا موضعا للريبة ، وكثرت الوشايات به فصار مبغوضا منفورا منه ، ووضعت عليه العيون والجواسيس ، وصارت أعماله تراقب مراقبة دقيقة فأحدث قلم للترجمة في المابين وانجمن التفتيش « مجلس التفتيش » والمعاينة في نظارة المعارف لمراقبة الكتب المطبوعة والتدريس ومضادة الضار منها « ! » على زعمهم وبحسب اصطلاحهم ، وقلم مراقبة المطبوعات الداخلية والاجنبية في الباب العالي . هذا ماعدا دوائر وشعب الخفية « الجواسيس » المتعددة المحدثة التي مركزها في المابين تحت نظارة السرخفية « رئيس الجواسيس » فهذا الذي قضى بسقوط سعيد باشا بالحقيقة والواقع فذهب بإصلاحاته ادراج الرياح ، وان كان عزله في الظاهر بسبب احتلال البلغار للروم ايلي الشرقية ، واصراره على إرسال العساكر كما تصرح بذلك معاهدة برلين ،

صدارة كامل باشا الصدر الحالي

تولى الصدارة كامل باشا الصدر الحالي بعد سعيد باشا ، ومولده في جزيرة قبرص ومرباه في مصر ولهذا نسب اليها ، وله معرفة باللغات الاجنبية و بإدارة الدولة ، لانه تقلب في جميع وظائفها فمن قائمقام الى متصرف الى والٍ الى ناظر ، ولكنه في نظر تركيا الفتاة كان أقلَّ شهرة من كثيرين من الوزراء والرجال الموجودين إذذاك .
واستمرت صدارته ست سنوات وهو آلة في يد المابين ، مطيع لما يلقي عليه من الامور ، ثم ظهرت شجاعته فعارض وعاند فأصابه ما أصاب سلفه سعيد باشا من سوء الظن به ، والريبة في أعماله وشؤونه مما قضى بفصله

صدارة جواد باشا وضعف الدولة

لما ولي الصدارة جواد باشا قوبل ذلك بالاستغراب العام ، ولم يكن يخطر تعيينه ببال ، لانه من أمراء العسكرية وهو صغير السن غير متمكن من اختبار الادارة الملكية ، على انه كان من النابته الجديدة ، وقد تخرج في المدارس العسكرية ، وربما كان الغرض من تعيينه هو الإيهام بالعود الى الاصلاح واطلاق الحرية ولكنه في الحقيقة لم يكن قائما بوظيفة الصدارة بل كان ياورا للحضرة السلطانية مكلفا بتنفيذ الامور التي تلقى عليه !! ، كما كان رئيس الوزارة الالمانية ياور للحضرة الامبراطورية ولكنه غير مسؤل امام الريشستاغ فلم يبق بعد ذلك شأن للصداة ، واستولى رجال المابين على الشؤون كافة ، وصار في يدهم العزل والتوظيف والحل والربط وإعطاء الامتيازات بعد

الخطوط الحديدية واستخراج المعادن وسائر الامور النافعة، وكانوا يتناولون الرشى من وراء ذلك بصورة فاحشة واستولوا على الاوقاف، ووسعوا نطاق الخزينة الخاصة بانتزاع الممتلكات من أيدي أصحابها بالثمن البخس، و إقامة الموظفين فيها يعارضون بنفوذهم موظفي الحكومة ونفوذها، حتى أصبح المابين حكومة صغيرة قوية !! داخل حكومة كبيرة ضعيفة، لان مركز الحكومة نقل من الباب العالي الى سراي يلديز السلطانية !!

الجاسوسية في الدولة العلية

ضعفت إدارة الدولة وجعلت تتدهور بسرعة الى دركات التأخر والانحطاط، بعد ان خطت خطوات محمودة في سبيل التقدم أيام صدارة سعيد باشا، وانقطع أمل الاحرار العثمانيين وخاب رجاؤهم بعد ان كانوا

يؤملون تخليص الدولة والمملكة من المرض الذي منيتا به قديما . فاضطهد هؤلاء الاحرار وأهينوا وعوملوا اسوأ معاملة ، حتى ذاقوا أشد العذاب الوجداني والادبي ، وصار أرباب الدناءة والفساد يتقربون الى المابين بالتملق والوشاية والتجسس على إخوانهم وأعمامهم وآبائهم ! ومنهم من تجسس على أمه وأخيه فنفيا من الاستانة ، فكانوا — بمفترياتهم — يصورون الرعية الصادقة للسلطان الاعظم كالوحوش الضارية تريد افتراسه ونزع تاجه ، ويزينون في عينيه الاستبداد ، ويبعدون عنه الخبيرين بأمور الدولة العارفين بطرق الاصلاح ، زاعمين انهم من ذوي الافكار المتطرفة وحزب تركيا الفتاة ، حتى اختل نظام المملكة ، وبطلت مراعاة الاحكام القانونية ، والسير في إدارة الدولة على الاصول والتقاليد المعروفة من القديم ، وفسد التعليم في المدارس ، وانحرفت ادارة الامور الداخلية والخارجية عن محورها ،

ومالت الى التدلي والانحطاط ، رغم الابهــة الظاهرة ، والعظمة الـكاذبة ، ولا سيما في موكب صلاة الجمعة إذ تصطف العسا كر في ساحة المسجد الحميـدي امام باب السراي صفوفا مضاعفة بعضها وراء بعض رجالا وفرسانا ، وتتسابق مركبات الـكبراء والسفراء الاجانب ، ثم تشرق المركبة السلطانية من مطلع السراي و « المشيرون وكبار رجال المابين حافّون من حول المركبة مشاة خشّع الابصار ترهقهم ذلة من جـلال تلك العظمة الإمامية ، وهم في غير هذه الساعة أكاسرة الفرس وقياصرة الرومان كبرا وجبروتا ، وكلهم في أمواج الملابس الذهبيـة يسبحون وعلى صدورهم نياشين الجوهر تخطف الابصار » . وكان في كل نظارة من نظارات الداخلية والعدلية (الحقانية) والمالية والمشيخة الاسلامية وغـيرها رجال معروفون يبيعون الوظائف والرتب بأسعار معلومة ، ويقتسمونها هم وكبار الموظفين ، فمن اشـترى وظيفة بمئة ليرة فأ كثر

فانه يجتهد في استغلاله منها اضعاف ما بذله بإرهاق الاهالي وظلمهم أو اختلاس الاموال الاميرية أو بكليهما!!

الميل عن انكلترا الى ألمانيا

والحوادث الارمنية

انحرفت سياسة المابين عن انكلترا الملحّة في طلب القيام بالاصلاحات وتغيير الادارة المستبدة الظالمة، واتجهت نحو ألمانيا التي لا ترى بأسا في ادارة الدولة بالقسر الاستبدادي، فجنح بعض ساسة الانكليز للارمن ومالوا اليهم، وساعدوا جمعيتهم السرية التي في لوندره، وأشار عليهم بعض رجال السياسة كغلادستون بالقيام والهيجان حتى اذا حدثت في البلاد مذابح كمذابح البلغار هاجت الافكار العمومية في أوربا، وتسنى لحكوماتها المداخلة في طلب الامتيازات لارمينيا، كما حدث في البلغار والجبل الاسود والصرب. ويساعد على ذلك

نص المادة الحاديه والستين من معاهدة برلين فقدجاء فيها ما معناه « يتعهد الباب العالي بأنه يسرع في القيام بالاصلاحات والتحسينات التي تقتضيها حال البلاد الداخليه في الولايات الآهلة بالارمن ، وبحمايتهم من الجراكسة والاكراد ، ويعطي الباب العالي في معظم الاوقات معلومات عن التدابير المتخذة في هذه السبيل للدول المشرفة على القيام بالاصلاحات »

وفي سنة ١٨٩٠ تشكلت جمعية انقلابية أرمنية (١) لتحرير الارمن التابعين للدولة العلية وروسيا والعجم ، وكان رأس مالها مئة وثلاثين ألف فرنك ، وميزانيتها اليوم مليون فرنك ، منها ثلاثون في المئة للقيام بالحركات الانقلابية والسياسية ، وخمسة وعشرون في المئة لتسليح الامة ، وعشرون في المئة للنشرات والتبشير ،

---

(١) في سنة ١٨٨٧ تألفت جمعية هنجاق الارمنية ومعنى إسمها الجرس

فأحس احرار العثمانيين بذلك وتأثروا جدا ، فاجتمعوا سراً وتشاوروا ، وخابر بعضهم كبراء الارمن وعقلاءهم وقالوا لهم ما حاصله :

لا محل لاصلاح ولايات أرمينيا وحدها دون باقي الولايات العثمانية ، فالواجب طلب الاصلاح للمملكة العثمانية كلها . نعم ان الارمن يتألمون من الادارة الحاضرة ولكن الظلم والاستبداد ليسا موجهين اليهم خاصة ، بل هما شاملان للارمن والاتراك وعموم المسلمين والمسيحيين ، فانهم جميعهم يئنون تحت اثقال التكاليف وارتكاب الموظفين ومعاملاتهم القسرية والاستبدادية ، ويتحملون أنواع الظلم والاعتساف وهضم الحقوق ، وحظ المسلمين من ذلك أكبر ، لقيامهم وحدهم بأعباء الخدمة العسكرية التي تقعدهم عن زرع الارض واكتساب الثروة والرفاه والنمو والازدياد في العدد ، وان اتفاق الارمن والاتراك على القيام بطلب الاصلاحات اللازمة

وتأسيس حكومة مقيدة حرة يعد من الحمية والغيرة الوطنية ، ولكن قيام الارمن أو طائفة أخرى على انفراد بمساعدة الاجنبي وترغيبه لا تعده تركيا الفتاة إلا خيانةً وجناية وضررا بمنافع الوطن المشتركة . على أن الارمن كانوا لدى تجنسهم بالجنسية العثمانيـة لا يزيدون عن بضعة عشر ألفا وقد أصبحوا اليوم يعـدون بالملايين . وان القاطنين منهـم في العاصمة والمـدن الكبيرة على جانب عظيم من الغنى والثروة والرفاه ، وبيدهم الشؤون المالية والوظائف العالية والرتب السامية وهم على وفاق وائتلاف تام مع الاتراك حتى إذا أطلقت كلمة «ملت (١)

---

(١) يراد بكلمة « ملت » عند الترك الامة ، والملية هي القومية فكل ما يرد في هـذه الرسالة من هذه الـكلمات ينصرف الى ما ذكر ، على اننا وضعنا عند معظم الـكلمات التركية التعبير كلمة عربية بين قوسين تفسيرا لها

صادقة » لا تنصرف إلا الى الارمن . فبناء على هذا الامتزاج التام بين الترك والارمن وما فيه من الفوائد والمنافع للفريقين طلب بعض أحرار الترك من معتبري الارمن وعقلائهم إفهام الجمعيات الارمنية التي في أوربا هذه المقاصد ، واستعمال نفوذهم لتعديل المطالب الارمنية ونبذ التهور في سياستهم

وفي سنة ١٨٩٤ اشتعلت نيران الحادثة الارمنية وحصلت مذابح ساسون وخربت ثلاثون قرية من قراهم . كل هذا وجواد باشا الصدر الاعظم لاهٍ عن اتخاذ الوسائل لحسم هذه المسائل ، والقيام بالاصلاحات في جميع ارجاء المملكة ، ولقد كانت سياسته محصورة بالتدابير المؤقتة لايقاف الاعتداء وسلوك سبيل المماطلة والإرجاء ، وأوربا — ولا سيما انكلترا — واقفة للدولة بالمرصاد ، تخلق لها المسائل والمشاكل واحدة بعد أخرى . فمن الحادثة الارمنية الى المشكلة الكريدية الى

المسألة المقدونية وهلم جرا ... ورجال المابين أكثرهم جهلاء أغبياء ، لا خبرة لهم بالسياسة ، ولا معرفة لهم بالشؤون الحاضرة. وآخرون منهم شياطين أبالسة لا يدأبون إلا على جمع الاموال وادخارها ، ولو أدى ذلك الى خراب الوطن وسقوط المملكة . فكانوا يخوفون السلطان من حزب تركيا الفتاة ومن القيام بالاصلاحات ، ويشيرون باتخاذ التدابير السيئة حتى حدث ما حدث من المذابح والفظائع التي نسبت الى الاسلام. والاسلام يبرأ إلى الله منها :

والدين انصافك الاقوام كلهم
وأي دين لآبي الحق ان وجبا
والمرء يعييه قَود النفس مصحبة
للخير وهو يقود العسكر اللجبا

تأسيس جمعية الاتحاد والترقي

كان من نتيجة هذا الخلل في الادارة والاستبداد والعسف بالامة أن تأسست في الاستانة جمعية الاتحاد والترقي لاخماد نار الفتن المشتعلة في البلاد، وطلب الحرية والعدل لجميع العثمانيين، وتأييد روابط الحب والامان بين الامة — المؤلفة من السنة وأديان مختلفة — وبين الدولة، وقد بعثت الجمعية في تلك السنة (١٨٩٤) فريقا من الشبان الاحرار — أكثرهم من طلاب المدرسة الطبية — الى باريس ليؤسسوا فرعا للجمعية فيها ويقوموا بنشر الجرائد والرسائل . وكان في باريس اذ ذاك عدد ليس بالقليل من الشبان العثمانيين ، بعضهم يدرس على نفقة الحكومة العثمانية أو نفقته الخاصة ، و بعضهم يدرس و يشتغل بالمسائل السياسية وأشهرهم احمد رضا بك صاحب اللائحة المشهورة .

٭٭٭

﴿ احمد رضا بك ﴾

(ومبادىء جمعية الاتحاد والترقي)

ولد احمد رضا بك في الاستانة منذ خمسين سنة تقريبا ووالده انكلز علي بك وأمه مجريه، وسمي انكلز لتعلمه الانكليزيه ووقوفه على المدنية الاوربيه كما مر بيانه، والا فهو من الاتراك المسلمين وكان من معتبري الموظفين الذين نشأوا في عهد مصطفى رشدي باشا وعالي. فتخرج احمد رضا بك في مدارس الاستانة وعين مديرا للمدرسة الاعداديه في مدينة بروسه فأحس في نفسه بلزوم السفر الى أوربا للاطلاع على علومها ومدنيتها فذهب الى باريس سنة ١٨٩٠ واختلف الى مدرسة الزراعة لشدة احتياج المملكة الى العلوم الزراعيه، وتعرف الى علي شفقتي بك الذي يصدر جريدة «استقبال» في ايطاليا

ثم في فرنسا ، وهو من رجال السلطان مراد . وكان رضا بك كثير التردد على المكتبة الاهليه في باريس ، فاطلع فيها على أهم الكتب والفنون ، واشتغل بالمسائل السياسيه ، وحرر لائحه مفصلة مشتملة على رسائل في إصلاح الادارة والماليه والزراعه والتجارة وغير ذلك بعد ان درس لائحه مصطفى فاضل باشا ووصيه فؤاد باشا وما حرره ملكوم خان وشارل ميزمر وغيرهما من أكابر الرجال المشتغلين بالسياسه الشرقيـه والواقفين على أسباب الانحطاط وعلله الفلسفيه .

سلك احمـد رضا بك في الفلسفه الحقيقيه مسلك أو كوست كونت وخليفته بيير لافيت ، وصار إماما في هذه الطريقه المؤسسه على « النظام والترقي » وهذه الكلمه هي شعارهم وعليها بناء أعمالهم ومن مبادئهم التفاني في حب الوطن وخدمة الجماعه ، أي وقف حياة الفرد على خدمة المجموع وهم ينفرون من الانغماس في الشهوات

وتبذير الاغنياء لان المبذرين إخوان الشياطين، ويشددون النكير على الذين يبتزون الاموال الاميريه ويأكلون أموال الناس بالباطل ويعبثون بالحقوق العموميه، فالمرتكب الملوث بالرشوة يعدونه ساقطا مهما بلغ علمه وقدره. فأحمد رضا بك متصف بكل هذه الخلال الجليلة، وقد ضحى نفسه وشبابه في سبيل المحافظة على مبدئه، ورفض قبول الالوف من الدنانير وهزىء بالمناصب التي كانت تعرض عليه، مع شدة حاجته واضطراره، وتحمل الاذى والمكاره، وجاهد في سبيل استرداد الحريه حق الجهاد قائلا: لو وضعتم الشمس في يميني والقمر في شمالي لما تحولت عما قصدت اليه. فكان في الحقيقة من أولي العزم الصادق، ونشر تعاليمه وأفكاره وله رساله مطبوعه بالفرنسيه عنوانها «التساهل الديني» رد فيها على الذين يتهمون المسلمين بالتعصب، واستدل بكثير من الآيات القرآنيه والاحاديث النبويه مما دل على غزارة علمه.

وأما اللائحة التي مر ذكرها فهي رسالة باللغة التركية مشتملة على تحقيق وعلم وسياسة في اصلاح إدارة الدولة ولما تنشر . وكانت جريدته « مشورت » تصدر بالتركية والفرنسية في كل أسبوع أو أسبوعين مرة ، ثم اقتصر على القسم الفرنسي وهي صغيرة الحجم مضى على إنشائها أربع عشرة سنة ، ويتألف منها مجلدان أو أكثر ، وربما كان له غير ذلك من المؤلفات . فانه كثير الدرس والتحقيق ، يقضي الساعات الطويلة في المكتبة الاهلية ، وفي مكتبته الخاصة مؤلفات كثيرة في التاريخ والسياسة العثمانية والمسألة الشرقية

ولما وصل وفد جمعية الاتحاد والترقي الى باريس سنة ١٨٩٤ كان رضا بك ساكنا في شارع مونج في بيت صغير (Appartement) في الطبقة السادسة فقصد اليه الوفد وذاكروه في انضمامه اليهم ، فتردد في بادىء الامر وقال اذا عزمت على شيء فانني لا أرجع

عنه مطلقا. وكان أقدر الموجودين وأعرفهم بطرق الاصلاح ومواضع الخلل لان إصلاح مملكة عظيمة مشتملة على أمم مختلفة في الجنس والدين واللسان ، ووارثة للخلافة الاسلامية والدولة البيزنطية — ليس بالامر السهل ، ولا يشبه اصلاح مدرسة أو ادارة تلاميذ وانما يحتاج الى علوم ومعارف شتى ونظر واختبار ونفاذ بصيرة وليس ذلك في مقدور من درس سنتين أو أكثر في مدرسة طبية لا تدرس فيها العلوم السياسية والحقوقية ولا العلوم الشرقية التي هي موضوع بحث العلماء المستشرقين . فقبل احمد رضا بك الانضمام الى الجمعية وصار رئيساً لفرع باريس ، ونشر جريدة «مشورت» بالتركية والفرنسية ناطقة بمقاصد الجمعية

معاكسة المابين للاحرار في أوربا

أمَّ باريس من ذلك الحين كثيرون من شبان العثمانيين وكهولهم حتى الشيوخ ذوي العمائم والفراء، ونشروا الجرائد والرسائل والوريقات، وادبوا مآداب وعقدوا اجتماعات سياسية. فانصرفت همم رجال المابين والسفارات العثمانية الى إبطال هذه النشرات واسترضاء أصحابها بالمال والرتب والنياشين والمناصب، حتى قيل لبعضهم «اطلب تُعط» كما ينقل عن الخلفاء في حكايات الف ليلة وليلة. وكان العطاء حاتميا بل أكثر، كان سلطانيا شاهانيا!! وصار طلاب الوظائف أو المعزولون يقصدون باريس فيكون ذلك سببا لعودتهم الى وظائفهم. ودخل في حزب تركيا الفتاة الصبيان الذين لم يبلغوا الخامسة عشرة، والتونسيون حتى الاجانب من الطليان واليونان، وأصبحت

سفارة باريس مرجعا للجميع كأنها أعظم دائرة من دوائر الباب العالي!!. واقدم الجرائد التي أبطلت جريدة المرصد العربية التي تعين صاحبها عضوا في شورى الدولة، فحسده عزت باشا العابد حتى صرف قوة عقله وذكائه في سبيل الوصول الى ماوصل اليه، وظهرت عدة جرائد ورسائل ومحررين بالتركية والعربية والكردية والفرنسية والالبانية وغيرها، منهم أصحاب صدق وقناعة، ومنهم ذوو طمع وشعوذة. ورجال الدولة يتقربون باسترضائهم واحضارهم كما كانوا في الازمان الماضية يتقربون بجلب أهل الظنة من الشيوخ وأصحاب الكرامات كالمرحومين الشيخ ابي السعود من القدس الذي استقدموه للسلطان محمود خان، والشيخ السن من صيداء والشيخ العمري من طرابلس الشام، وكذا المشايخ الذين كانوا في المابين وخاتمهم استاذنا الشيخ حسين الجسر مؤلف الرسالة الحميدية. فلواطلعت

على تراجم هؤلاء الشيوخ ومقدار معارفهم وكيفية طلبهم والاسترشاد بهم لعرفت ارتقاء الفكر التدريجي الذي حدث من عهد السلطان محمود، ولرأيت للانقلاب الحاضر معنى في الرسالة الحميدية التي دلت على كثير من العلوم الطبيعية والعصرية

لم يقصد من نشرات تركيا الفتاة في أوربا الا ايصال الشكاية من سوء الادارة الى مسامع الحضرة السلطانية، وافهام الدول الاوربية الموقعة على معاهدة برلين بأن لحزبهم السياسي كيانا ووجودا وان غايتهم اعادة القانون الاساسي ، فكادت أوربا تعتد بوجودهم كما ظهر من انتصار الجرائد الباريسية لصاحب جريدة « مشورت » يوم محاكمته في باريس والحكم عليه بفرنك واحد مع تطبيق قانون بيرانجه القاضي بالسماح عنه . وبينما كان المابين يقدم رجلا ويؤخر أخرى في اجابة حزب تركيا الفتاة الى مطالبهم الاصلاحية واعادة القانون الاساسي

واذا بالمشكلة الكريدية ولدت الحرب بين الدولة العلية واليونان (نيسان ــ مارس ١٨٩٧) وتم النصر فيها للعساكر العثمانية فأخذته العزة ودام على سياسته الاستبدادية فقعدت همة الاكثرين من حزب تركيا الفتاة وخضعوا لاحكام الاستبداد جبرا وقهرا، وان كانوا غير راضين عنها، وذاقوا عذابا شديدا بسبب غلاء أوربا وكثرة الانفاق فيها مع قلة ذات يدهم وفراغهم من نحو صناعة أو تجارة بأيديهم كما هي حال الارمن والبلغار، الا ما كان من علمهم باللغة التركية أو العربية اومعاونة الاطباء في المستشفيات بأجرة قليلة والسهر في الليل على المرضى. والاغنياء من أهل البلاد وكبار الموظفين لم يساعدوهم بشيء، الا بعض الامراء المصريين الذين نهجوا نهج مصطفى فاضل باشا مؤسس حزب تركيا الفتاة فانهم أمدوا بعضهم بالاموال وكانوا عونالهم. أما الجمعيات الارمنية والمقدونية الانقلابية فان أصحابهم وأغنياء أمتهم أعانوهم بالمال وأيدوهم بكل

مافي طوقهم ، وقد علمت مما تقدم ان ميزانية الجمعيه الارمنيه بلغت مليون فرنك فأين هذا من جمعيه الاتحاد والترقي ؟ ألا ان سبب خذلان العثمانيين لجمعياتهم هو موت النعرة الوطنيه في نفوسهم وفقد الحماسه القوميه وكونهم لم يفقهوا معنى الاجتماع والتعاون .

غرور المابين واستفحال الاستبداد

أظهرت الحرب اليونانيه العثمانيه فتوة الامه العثمانيه وحميتها وسلامتها من عوارض المرض أو الهرم كما يصفها أعداؤها ، وظهر فيها من شجاعة الضباط العثمانيين ومعارفهم ومحافظتهم على قواعد النظام الحربي ومقدرتهم على ضبط أفراد العساكر وكفهم عن النهب والعبث بالآداب وغير ذلك من الافعال الهمجية مايخلد لهم هذه المآثر في بطون التواريخ ، وابرز الجيش العثماني من الشجاعه العظيمة

والصبر والقناعة المعجب والمعجز ، وامتاز بالسلامة من من الابتلاء بالمسكرات كما هي عليه عساكر الروس وغيرهم من عساكر أوربا

زاد غرور المابين واستبداده بعد خروج الدولة من ميدان الحرب فائزة منصورة وانتقل مركز إدارة الحكومة من الباب العالي الى سراي يلديز، وأصبح مجلس الوكلاء لاعمل له ، والنظار لاوظيفة لهم الاتنفيذما يقرر في السراي. على ان الالتفات والاقبال والتقريب والنفوذ كان ينتقل من الباشكاتب الى الكاتب الثاني الى كاتب الشفرة (١) الى (الشيخ) الى (العابد) الى (الملاحمة) الى غني آغا الى لطفي آغا الى فهيم باشا الجبار العاتي — أولئك الذين ألقوا الرعب في قلوب المسلمين والمسيحيين وغيرهم مما

(١) الشفرة في اللغة التركية هي المخاطبة بالارقام بطريقة لايعرفها الا المتخاطبان وهي مأخوذة من كلمة (جفر) العربية

دل على استبداد متقلب مذبذب حيران ، حتى لم يعد لاحد ثقة بالحكومة ، وكاد الانقلاب يحدث في نفس السراي . وأكثر رجال السراي أميون ويندر في كتاب المابين من يعرف اللغة الفرنسية بله غيرهامن لغات أوربا ، وهم في جهل مطبق بالسياسة . ولذلك كثر الخطأ السياسي وسوء الادارة واختلاس الاموال الاميرية وظلم الرعية بما لم يسبق له مثيل .

تفنن المابين في أكل الرشى

(ومنح الرتب والاوسمة)

كان لرجال المابين في الارتكاب وسوء الاستعمال ظرف ورقة وتورية بديعة ، فلما أنشىء قضاء (بئر السبع) في تيه بني اسرائيل وعين له قائمقام في الاستانة قال له دولة الناظر حسبما أفاد : « بالطه كيرمامش اورمانه كوندريودم »

أي اني أرسلك الى غابة لم تدخلها بلطة الحطاب !
فذهب وحطب في الناس حتى عزل وأخذ تحت المحاكمة،
ثم عين في محل آخر . وهذا مثال من الف بل آلاف أمثلة
للارتكاب الذي أفسد اخلاق الامة وأخرها عن اللحاق
بالامم المتمدنة، ويروي عنه الناس نوادر عجيبة واساطير
غريبة تحتاج الى الجمع في كتاب أو الافراغ في قالب
قصصي ، وبعد ان كان تعيين الموظفين يكون بطلب
الباب العالي والنظارات صار التعيين وتوجيه الرتب من
المابين مباشرة !

تهافت الناس على احتجان الرتب مع لقب بك
الذي لا وجود له في الحقيقة بين الالقاب الرسمية كوجود
لقب باشا مثلاً ، وإنما اشتهر فريق باسم بك وفريق باسم
افندي فكانوا عند توجيه الرتبة ينظرون اذا كان الاسم
مقرونا بلقب بك صدرت الارادة السنية بموجبه ونشرت في
التوجيهات الرسمية ، فصار بائعو الرتب يتعمدون وضع

لقب في الطلب لتصدر بموجبه الارادة السنية وتنشر في القسم الرسمي من الجرائد، فتتناقلها الجرائد العربية وتقول وجهت الرتبة الفلانيـــة مع لقب بك لتوهم القارئ ان لقب بك توجيه جـــديد كلقب كونت أو مركيز عند الافرنج ، وامتلأت دوائر الاستانة بالموظفين بلا تمييز في جدارتهم واستحقاقهم واضطلاعهم بالعـمل الذي هم فيه، ولم يكن الغرض من التعين التحري على موظف قادر على ايفاء الوظيفة حقها من العـــمل ، بل ايجاد وظيفة وعمــل للمقربين والملتمس لهم أو للذين يخشى بأسهم! ! . فزادعددالاعضاء فيشورى الدولةعن المئتين ، ونظامهم انيكونواسبعةوثلاثين عضوا،وكذلك مجلس المعارف ومجلس التفتيش والمعاينة الضاغط على حرية نشرالكتب واستحضارهامنالخارج وهوالذي محا من كتب اللغة كلمات كثيرة مثل : حرية،وطن،اختلال انقلاب ، جمعية ، رشاد . . . . كما غيرت اسماء الموظفين

من عبد الحميد وسلطاني ونحو ذلك الى أسماء أخر و بعضها حرفت وكتبت سلتاني ، وامتلأت نظارة المعارف بالموظفين حتى قال ناظرها الاخير لما عرضوا عليه الميزانية : لولا وجود معاشات المعلمين لامكنني وضع الموازنة !!. فكانت معاشات المعلمين تضايقهم وهم يريدون حصر المعاشات بالموظفين من الرؤساء والاعضاء والكتاب والمفتشين ، وزاد عدد اعضاء الجمعية الرسومية عن ثمانين عضوا ، وكذلك مجلس المالية والاوقاف والعسكرية والبحرية وغير ذلك من أنواع المجالس ودوائر الحكومة والمعية الشاهانية ، حتى ضاقت المجالس والاقلام بالموظفين وصار أكثرهم لا يجد له كرسيا للجلوس عليه !!. وكانوا يأخذون رواتبهم وهم نائمون في بيوتهم .

اختلال المالية وارهاق الفلاح

اختلت الموازنة المالية اختلالا عظيماً أدى بها الى حجز نحو نصف رواتب الموظفين والعساكر ومخصصاتهم في كل سنة ، واستفحل الظلم في جباية الاموال الاميرية وطرح الاعشار وتحصيل رسوم الاغنام ، وتسابق الموظفون الى المزاودة بأعشار الاقضية والالوية ، وعدوا ذلك فضيلة وسببا مشروعا للمكافأة والترقي ، والمكلفون من الزراع والفلاحين يئنون تحت اثقال هذه التكاليف والمظالم ولا ناصر لهم ولا مفكر في شؤونهم ، وقلما كان يمر على القرية شهر من دون ان يأتيها المعشرون وجباة الاموال الاميرية ونصيب المعارف ومصرف (بنك) الزراعة وادارة الرسوم الستة أي الديون العمومية والاعانات المختلفة ، وكان الظلم أشد

على المسلمين منه على المسيحيين الذين كانوا يحتمون بأديارهم وبرؤسائهم الروحيين ، ولقد سمعت كثيرا من الفلاحين انهم اضطروا إلى بيع أراضيهم وتزويج بناتهم ليأخذوا صداقهن ويعطوا للجباة ما يطالبونهم به من الاموال الاميرية !! فصار الفلاح يتجنب زراعة الارض الا بقدر حاجته الضرورية ، ومن القواعد التي قررها الفيلسوف الشهير مونتسكيو مؤلف روح القوانين : « ان الاراضي يقل ايرادها بالنسبة لحرية سكانها لا بالنسبة لخصبها » فاذا كان الفلاح حرا عمر الارض الموات وجعلها خصبة بعمله وحراثته ، واذا فقد الحرية أصبحت أرضه الخصبة مواتا بسبب الظلم والاستبداد . وعليه فان ما نشاهده اليوم في أوربا من العمران إنما هو نتيجة الحرية ، فحيثما توجهت فيها لا ترى الا مروجا نضرة وأشجارا وكروما مخضرة وأنهارا جارية كأنها بستان عظيم ليس فيه قطعة أرض خراب

وصار رجال المابين يحرضون الولاة والمتصرفين على الاسراع بجباية الاموال والبعث بها الى الاستانة ، وكان القائمون باداتها لا يدرون أين تنفق وكيف تصرف لعدم نشر الموازنة المالية (Budget) بخلاف ادارة الديون العمومية التي هي تحت مراقبة الاجانب فانها في غاية الانتظام والترقي ، تزيد وارداتها في كل سنة فتدفع رواتب موظفيها ومرتبات الديون بأوقاتها المعينة ، وقد حدا ذلك الدولة الى العود الى الثقة المالية بها ، وأصبح أصحاب الديون في أوربا آمنين على أموالهم ، ولو حدثت قلاقل في المملكة العثمانية فان قيمة أسهم الديون لا تتنزل إلا قليلا ، واذا أردت المقايسة بين ادارة الديون العمومية وبين نظارة المالية فانظر إلى قرية من قرى الالمان أو اليهود المستعمرين في سوريا وفلسطين وما فيها من الانتظام والعمران والترقي، والى قرى الاهالي المجاورة لها وما فيها من الفقر المدقع

والخراب — يتضح لك الفرق بين الادارتين

اختلال الادارة العسكرية

بادارة الجواسيس لها

اختلت ادارة العساكر البرية والبحرية ، وأصبحت العساكر لا تمرن على التعليم الناري واصابة الهدف ، ولا تساق سوق الجيش خوفا من الهيجان وحدوث الانقلاب !! مع ان دول أوربا ولا سيما ألمانيا وروسيا والنمسا وفرنسا تقوم جيوشهن في كل سنة بمناورات حربية ، يحضرها الامبراطور نفسه مع أولاده وأسرته وجميع ضباط السفارات الاجنبية ، فيستطلعون أحوال الجند ويشوقونهم. وصار الاسطول العثماني الذي انفق على شرائه الملايين كالمقعد الذي يروم النهوض ولا يقدر عليه لطول مكثه ، فصدأت آلاته بسبب عدم الاستعمال والجري في البحار ،

واختلست أموال كثيرة من التجهيزات العسكرية ولا سيما في تجهيز الاسطول وشراء البواخر والمدرعات ، وصار الترقي في المراتب لا ينى على القدم والاضطلاع والاستحقاق ، بل على الالتماس والانتساب والرشوة ، فكان الضابط يرتقي الى المراتب العلى في أوجز مدة وقد يكون لا يعرف للجندية معنى حتى ولا احترام من فوقه في الرتبة ، وكان الضباط يبيعون رواتبهم التي تبقى دينا عند الحكومة للسماسرة بأثمان بخسة ، حتى يبعت المئة قرش بأربعة قروش ! و بيعت حُلة (بدلة) العسكري التي تشتريها الدولة بمئات من القروش بعشرين قرشا .. أي ان المستحق للراتب والحُلَّة كان يوقع على الورقة المؤذنة بالوصول اليه على القاعدة والاصول ، كأنه استلم الحلة من مخزن الالبسة أو قبض الراتب من صندوق الخزانة ! ثم يسلمها للسمسار فيعطيه هذا في مقابلها ما يتفقان عليه ، ثم يتفق السمسار مع

المحاسبه جي (القائم بالحسابات) ومن فوقه و يربحون الفرق ، ويقيدون ذلك في الدفاتر (وارد وصادر) كأنها جرت على القاعدة والاصول . وبهذا أصبح الضباط في حالة يرثى لها . وكنت ترى ضباط البحرية البالغ عددهم نحو ستة آلاف في قهوات الاستانة خلوا من العمل يتجولون في شوارعها وحاراتها ! !

اشتبهت الادارة المستبدة في أمراء العسكرية الذين تعلموا في أوربا وخدموا الأمة والوطن وصارت لهم ملكة ومعرفة تامة بأحوال الزمان ، فابعدتهم عن الاستانة وأشغلتهم بالوظائف الثانويه بداعي ميلهم الى الافكار الحرة واعادة القانون الاساسي ، ولقد بلغ عدد الراجعين منهم إلى الاستانه بعد حدوث الانقلاب ستين شخصا من الباشوات وأمراء العسكريه وخمس مئة ضابط ، ومنهم رجب باشا وفؤاد باشا الشهير وناظم باشا وهو صهر عالي باشا . وأصبحت قيادة العساكر

وادارة المدارس العسكريه" بأيدي أناس لا كفاءة لهم وليس لهم عمل الا التجسس على أصحاب الافكار النيرة وابعادهم عن مركز الادارة ، وكانوا يعدون ذلك خدمه "لمنافع السلطنه" والمحافظه على الخلافه "الاسلاميه" !!! فأصبح للتجسس والمراقبه" دائرة من أعظم دوائر الدوله" ، لها مراكز وشعب كثيرة ومعاشات وافرة غير الاحسانات والانعامات !! . فكان الجواسيس ينظمون التقارير في كل حادثة ومسأله" صغيرة كانت أو كبيرة ، ويختلقون المسائل ويفترونها ويصورونها في قوالب مستحيلة ينبذها العقل ويأباها أولو النظر الصحيح والوجدان السليم، وما ذلك الا لاظهار خدمهم واثبات تيقظهم ومغالبتهم لنيل المكافأة ، والمابين لا يكلّ من تحقيق مضمون هذه التقارير لعله يجد في مئة كاذبة واحدا صحيحا ، فاذا قالوا : « فلان له قصد سيئ بالخليفة » أو « له مخابرة مع حزب تركيا الفتاة » أو « عنده أوراق ضارة » كانت

كل واحدة من هذه التهم كافية للدمور على منزله وتفتيش أوراقه وهتك حرمته ثم نفيه أو حبسه أو عزله وابعاده ، فكانت شبههم هذه تدور على حدوث المؤامرة ضد الذات الملوكية والمس بحقوق الخلافة الاسلامية ، على انهم لم يتخذوا في الحقيقة سياسة اسلامية وهي المعبر عنها عند الافرنج بقولهم « بان اسلاميزم Panislamisme » كما توجد سياسة سلافية « بان سلافيزم Panslavisme » وسياسة جرمانية « بان جرمانيزم Pangermanisme » ولا تجد في دوائر الدولة كلها قلم مخصوص للمصالح الاسلامية كما يوجد في باريس و برلين و بطرسبرج أقلام ودوائر خاصة بدرس المسائل الاسلامية درسا تاريخيا علميا للوقوف على أفكار المسلمين وهيئتهم الاجتماعية ، وعلى أحوال العالم الاسلامي في مشارق الارض ومغاربها ، ليكون الوزراء والموظفون على بصيرة

ويقين من حقائق هـذه المسائل الحيويه الاجتماعيه . فقصدهم من السياسه الاسلاميه انما هو أكل الحيات! والتظاهر بالكرامات ! والتكبر على الناس ، والتشبه ببني العباس

لم تباشر الحكومه أمراجديا بعمران البلاد واستخراج ثروتها الطبيعيه والسير بها في معارج التمـدن والرفاه ، وتعليم رعاياها أصول الزراعه والتجارة وعقد الشركات والتعاون على ما فيه نفع البـلاد ، بل عاكست جميع المشروعات الوطنيه فكانت لا تمكن من فتح المدارس الخصوصيه أو تعليم الاولاد ولاسيما المسلمين في المدارس والبلاد الاجنبيه ، وحظرت تأسيس الجمعيات واطفأت حميه أرباب الهمم تذرعا بأنها تؤدي الى الثورة والانقلاب! فكم نظر الولاة والمتصرفون شزرا إلى مدرسه وطنيه أسسها الفرد أو الى مدرسه سلطانيه أسستها الجماعه أو الى شركه صناعيه أو ماليه عقدها الاهالي ، وسرعان

ما كانت تتعطل ويمحى أثرها ، وكم منعوا الآباء من ارسال أولادهم إلى المدارس الاجنبية أو الى مدارس أوربا ، وكم اضطهدوهم من أجل ذلك ! !

ليس ما أجرته الحكومة من مد بعض الخطوط الحديدية واصلاح المرافيء التجارية وتطهير المستنقعات الا اجابة لطلب الشركات الاوربية وتوسط بعض المتنفذين للاستحصال على امتيازاتها والاستفادة بما يعود عليهم بسببها من المنافع الشخصية ، فمنح الامتياز كان من قبيل الانعام والاحسان لايكاد يتم لصاحبه ويأخذ به الفرمان السلطاني حتى يبيعه لشركة أجنبية ويربح منه الملايين فيوزع نصفها على الذين كانوا عونا له في الحصول على الامتياز ، ويبقى النصف الآخر ربحا صافيا له في مقابل اتعابه بالذهاب من المابين الى نظارة النافعة (الاشغال) والصدارة ، وملاحظة الخدم والكتاب والتقرب بهم الى كبير القلم أو الدائرة ، وكل زيارة تحتاج الى اكرام

و (شوفة خاطر)!! روى لي احدهم عن بعض النظار انه أوقف ختم مضبطة امتياز في مد سكة حديدية كبيرة على أخذ أربعين ألف ليرة عثمانية ، وانه لم يقبل أخذ حوالة على المصرف (البنك) أو قوائم نقدية خوفا من ظهور الارتكاب ، واشترط ان يكون ذهباً عيناً ! قال الراوي فجاؤا بالمال وصفوه على منضدة كبيرة مرخمة عَمَدا عَمَدا وكان كل عمود خمسين ليرة فكان ذلك ثمان مئة عمود مصفوفة صفوفاً متوازية ملزوزة ، وللاصفر الرنان فوق الرخام منظر عجيب ! ، فلما تم العد والحساب قال دولة الناظر وكان مستلقيا على فراش الموت (تمامي؟) يريد هل العدد تام فقيل له نعم ياسيدي تام ، فاخرج الختم من كيسه المعلق في عنقه وختم المضبطة ثم توفي بعد ثلاثة أيام فكانت آخر ملذاته من نعيم الدنيا !!. ولذلك كان فريق من الكبراء والموظفين يتمتع بالقناطير المقنطرة من الذهب ويقبض رواتبه سلفا ، وويل لعمال الخزانة ان لم

يدفعوها — وفريق يتضور جوعا وهو ينتظر رواتبه المترا كمة دينا عند الحكومة من سبعة وثمانية أشهر في السنة ، وهي التي يعول عليهـا في الانفاق على نفسه وعياله النفقة الضرورية ، وكان ضباط العسا كر مظلومين أكثر من سواهم فكانت رواتبهم وتعييناتهم — على قلتها — لا تعطى لهم ، وليس تحت أيديهم أموال ينهبونها أو رعية يرتشون منها ، ولقد كان ذلك من أعظم أسباب الانقلاب ، قال فيكتور هوكو : « ان الجوع يثقب في قلب الانسان ثقبا ويملؤه حقدا »

سقوط هيبة الحكومة

في بلادها وفي الخارج

ان اختلال الادارة وتذبذبها لم يبق للحكومة قاعدة مطردة ولا أصولا مرعية لا في سياستها الداخلية ولا الخارجية ، وانما أصبحت ذات قواعد مختلفة وسياسات شتى بعضها

يناقض بعضا ، فكانت تمحو في الغد ما أثبتته في الامس ، وربما غيرت سياستها مرتين في اليوم بحسب الاشخاص والوقائع ، ولهذا سقط اعتبارها عند الدول الاجنبية فتجرأن على تهديدها حتى في المسائل الحقيرة كمسألة تو بني دلوراندو التي أوجبت خروج الاسطول الفرنسي الى جزيرة مدللي (متلاين) ، فصرح اذ ذاك مارسل سامبا زعيم الاشتراكيين في مجلس النواب الفرنسي قائلا : ماهذه السياسة الخرقاء ؟ انكم لم تحركوا ساكنا في المذابح الارمنية ولم تتداخلوا فيما توجب معاهدة برلين المداخلة فيه من طلب الاصلاح واجراء العدالة الانسانية ، والآن تتكبدون النفقات باحراق فحم الامة وارسال الاسطول لحماية نفرين من المرابين اقرضوا أموالهم على ان يكون ربحهم عشرين وثلاثين في المئة حتى أصبح مايطلب لهم عين السحت ! . وسقط اعتبارها أيضا في نظر رعاياها وصار أكثر الموجودين منهم في الديار الاجنبية يأنفون ان

يكونوا من رعيتها ، فكانوا يتعدون بقدر الامكان عن سفارات الدولة وقنصلياتها ، و بعضهم استبدل التابعية الاجنبية بالتابعية العثمانية

كان أرباب الحمية والغيرة الوطنية من العثمانيين ينظرون الى هذه الاحوال بعيون الاسف والاستياء ويعتقدون ان مصدرها الوحيد هو الاستبداد ولا تخلص منه الا بتعليم الامة واستنارة ذهنها ، والرجوع في الاحكام الى الدستور المنسوب لمدحت باشا وان لم يكن كله من بنات افكاره . فكان الاستبداد ضاغطا على جميع افراد الامة لم يقتصر بضغطه على ضعفائها واحرارها وحزب تركيا الفتاة فقط ، بل شمل جميع أفراد خاندان آل عثمان وجميع المقربين من رجال الدولة الذين افنوا اعمارهم في دور الاستبداد وجمع الاموال والوزراء والموظفين كافة وجميع الاهالي ولا سيما في الاستانة ، حيث بطلت الافراح والجمعيات المشروعة لعقد النكاح أو للختان ، وحرم على

الناس الاجتماع للسمر والحديث ، كل ذلك خوفا من الانقلاب ، وصار لا يؤذن لاحد بالذهاب الى أوربا ولو كان مريضا ، كما انه لا يؤذن للضباط بالتوجه الى الاستانة أو المرور بها وصار كبار الموظفين لا بد لهم من إذن مخصوص وارادة سنية لحركاتهم الشخصيه وافعالهم البيتيه حتى زواج بناتهم وأولادهم !!!

دخلت يوما على السيد جمال الدين الافغاني وهو في قصر لطيف على بابه الخدم وكانت تأتيه مائدة من (المطبخ العامر) فقال: اية فائدة من هذا القصر والخدم والمائدة وانا اذا اشتهيت أكلة بفتك (شِواء) أو نشر فكر في جريدة أو التنزه في ناحية من المدينة لا أستطيع. أيهنأ عيش الانسان بغير الحرية ! ولهذا فر الى باريس الداماد محمود جلال الدين باشا وابناه الامير صباح الدين بك والامير لطف الله بك، وفر الى مصر احمد جلال الدين باشا رئيس الجواسيس وكثيرون غيرهم

اتحاد الارمن والاتراك

في طلب الحرية

شكلت جمعية الانقلاب الارمنية بعد مذابح ساسون المتقدم ذكرها فرقة من الثائرين هجموا على البنك العثماني في الاستانة والقوافيه القنابل سنة ١٨٩٦ ليلفتوا بذلك نظر الحكومة العثمانية والدول الاوربية الى وجوب القيام بالاصلاحات واعطاء الحرية وتعميم المساواة بين جميع الاهالي بلا فرق في الدين والجنس ، ثم ألفوا لجانا (Comités) كثيرة أهمها لجنة سيروب التي قاومت ست سنوات في جبال ساسون، ثم حولت الجمعية نظرها الى جهة قافقاسيا (القوقاز) الروسية بسبب اضطهاد أميرها البرنس غاليتزين للارمن التابعين لروسيا وتسليط التتر المسلمين عليهم ، مما أدى الى حدوث مذابح باكو

وفظائعها وعدة وقائع ومقاتلات ، وتصدى الثوار لقتل الرؤساء والقواد والامراء والضباط الذين سببوا المذابح ، وكان قتل كل واحد منهم يكلف الجمعية الاموال والنفوس ، فقتل بليف مثلا سبب هلاك أربعة من اعضاء الجمعية وصرف مئتي ألف فرنك ، وكذلك القاء القنبلة في موكب صلاة الجمعة امام سراي يلديز فانه كلفهم خسائر جسيمة ، فعدلت الجمعية الارمنية بعدذلك عن هذه الحركات ، ومالت الى الاتفاق مع تركيا الفتاة فعقدت مؤتمرا في ويانة حضره جماعةمن الترك والارمن والمقدونيين والروم والكرد والعرب واليهود والارناؤط ، وكان الشارع في عقد هذا المؤتمر معلوميان افندي الارمني الشهير ، وقد تم اتفاقهم فيه على المسائل الآتية : (١) قلب الحكومة الحاضرة والسعي في تحقيق ذلك بجميع الوسائل (٢) تأسيس حكومة مقيدة دستورية لجميع رعايا المملكة العثمانية (٣) استعمال جميع الوسائل الانقلابية

لتحقيق هـذا المقصد . وذلك لان الحـكومة المستبدة استعملت جميـع الوسائل لخراب المملـكة واطفاء نور العلم والحرية ، فأقفلت المدارس وحبست المعلمين ونفت التلاميذ ، وان الاماكن التي بقي فيها شيء من المدارس أنقصت التعليم فيهـا بايجاد مراقبة لم يسبق لهـا مثيل . وصارت الجرائد لا تنشر من الاخبار إلا ما يؤذن لهـا بنشره بعد التحريف والتغيير أو الاخـتراع من جانب المراقب . وصارت التكاليف المستوفاة بلاعدالة لا تصرف على التعليم أو التبسط في الحضارة والعمران ، بل عـلى الجواسيس والجرائد المؤيدة للظلمة المحبّذة لاعمالهم ولا سيما في البلاد الاجنبية ، وذلك لإيهام الناس ومخادعة أوربا عن أحوال الممالك العثمانية .

فمنع العثمانيين من التجول والسفر ومنعهم من أخذ تذاكر الجواز (Passes-port) أوجبا تعطيل التجارة ، كما ان استيفاء التكاليف الاميرية بطريقة غير عادلة

وفقدان الامن في البلاد وتراكم الحاصلات وكثرة المرابات وفقدان وسائل الاختلاط كل ذلك كان سببا قويا في خراب الزراعة . فأصبحت البلاد التي كانت مزرعة الدنيا في عهد المدنيات السابقة خرابا ، وأراضيها قفرا بلقعا ، حتى هاجر منها أهلها الذين ولدوا فيها الى أمريكا وأوربا ومستعمرات أفريقيا ، ليفتشوا لهم عن قليل من الحرية والامن وأسباب المعيشة ، فالمهاجرة والقحط أكملا العمل الذي بدىء بالمذابح وانتج الخراب للبلاد وخلوها من السكان ، فلجميع ما ذكر من الأسباب أصبح الانقلاب السياسي ضروريا لمنع انقراض المملكة العثمانية ولتوقيف انحطاطها — تلك خلاصة المذاكرات والمناقشات التي جرت في المؤتمر

نهضة جمعية الاتحاد والترقي

وانتشارها

حدث الاختلاف في فرع جمعية الاتحاد والترقي العثمانية في أوربا على الرياسة ، فانقسم إلى أحزاب وفارقه الكثيرون من اعضائه ، ولكن صاحب جريدة مشورت بقي ثابتا يتوفر على اصدار جريدته في أوقاتها وغيرها من المنشورات، وكان الدكتور نظمي بك السلانيكي الاصل وغيره من ذوي الغيرة الوطنية من خير الاعوان له ، وقبل حدوث الانقلاب بأربع سنين كانت جمعية " الاتحاد والترقي العثمانية " ضعيفة عاجزة في حكم العدم ، ولذلك لم يعبأ بها أرباب السياسة ولم يعتقدوا بأن لتركيا الفتاة حزبا موجودا ، بل كانوا يرون ان هناك بعض المتشردين ينشرون أوراقا قليلة

الجدوى لتخويف المابين ونيل الوظائف والاحسان ، وكانوا يعدون أحمد رضا بك معاندا مصرا على طلبه لتخليد اسمه بين الفلاسفة المحقيقين ، مفضلا ذلك على حطام هذه الدنيا الفانية

تداخلت الدول الاوربية منذ أربع سنين في المسألة المكدونية أي في ولايات سلانيك وقوصوه ومناستر وطلبوا إصلاحها ، فزال منها بعض الظلم وتحسنت إدارتها تحقيقا لرغبة أوربا وخوفا من مداخلتها ، وسمحوا لأهالي تلك الولايات بقليل من الحرية ، فنفسوا بها عن صدورهم ونظروا في شؤونهم . وكانت البلغار والروم تشكل الجمعيات السرية السياسية المعروفة باسم كوميته (Comité) فسموا الداخل فيها (كوميته جي) باضافة اداة النسبة التركية إلى كلمة كوميته الافرنجية للمحافظة على قوميتهم وحقوقهم وأوضاعهم ، وكانوا يبذلون أرواحهم وأموالهم في سبيلها ويظهرون من

الحماسة والغيرة الوطنية مالا يقدر ولا يوصف . وكانت الحكومة المحلية تهابهم وتلاطفهم وتستميح رضاهم ، فعز ذلك على المسلمين من الترك والارناؤط سكان تلك الولايات ، واعتبروا باخوانهم في الممالك البلقانية المستقلة استقلالا كليا أو جزئيا كرومانيا والصرب والجبل الاسود واليونان والبلغار والبوسنه والهرسك ، فاستيقظوا من نومهم وأفاقوا من غفلتهم ، وقالوا إلى متى نبقى في هذا الظلم والاعتساف والجور والاستبداد والذل والتحقير ؟

ولا يقيم على ضيم يراد بهِ
الا الاذلاَّن عَير الحي والوتد

ما لنا لا نفعل كالروم والبلغار والرومان(١) والصرب في محبة الوطن والدفاع عنه ؟ ولما سألوا مشايخهم عن ذلك أجابوهم بان الاسلام يساعد ويحض على ذلك ، ووجدوا امامهم تعليمات جمعية الاتحاد والترقي فدخلوا

(١) يريد بالرومان أهل رومانيا

فيها باختيار وشوق وحمية ، عارفين بما ينتجه فعلهم من الفوائد الماديه والمعنويه ، فتشكل لهذه الجمعيه مركز في سلانيك وفروع عـديدة في جميع جهات الولايات الثلاث المقدونيه ، ولقد بلغ عـدد اعضاء الجمعيه في سلانيك وحدها سبعة آلاف شخص ، والجواسيس غافلون لا يدرون من أمرهم شيئا ، وكان جمهور الاهالي في الولايات الثلاث المذكورة يعتقـدون بانه سيصيب بلادهم ما أصاب كريد وولاية الروملي الشرقية والبوسنه والهرسـك . . . الخ ، ولذلك كانوا في الباطن يتمنون نجاح الجمعية وان لم يقدروا على التظاهر بذلك .

الامير صباح الدين وسياسته

أكبّ الامير صباح الدين على تحصيل العلم ولا سيما بعد وفاة والده فاستنار فكره ، وجنح للحرية والاخذ

بوسائل المدنية الحديثة ،فأسس حزباسياسيا يعرف بحزب (التقييد واللامركزية مع التشبث الشخصي) ولسان حال الحزب جريدة (ترقي) التركية وقد تأسست سنة ١٩٠٦ ومحررها هو أحمد فضلي بك كاتب الجمعية . فعدم المركزية أو اللامركزية (Décentralisation) يقسم الى قسمين عدم مركزية سياسة مثل مستعمرة كندا الامريكية مع انكلترا . وعدم مركزية إدارية وهو عبارة عن توسيع اختصاص الولايات، وتزييد حريتها وانتخاب المجالس العمومية فيها كما أشير اليه في المادة (١٠٨) من القانون الاساسي ، وجرى تطبيقه قبلا فتشكل لولايات الشام مع فلسطين مجلس عمومي اجتمع مرة واحدة في بيروت، وكان ذلك في أيام ولاية راشد باشا الذي صار بعد ذلك ناظراً للخارجية وقتل في واقعة جركس حسن بك . فمراد البرنس صباح الدين بك بعدم المركزية هو عدم المركزية الادارية كما

صرح به لاعدم المركزية السياسية الذي هو عبارة عن استقلال الادارة مثل حكومة كندا

ومرادهم بالتشبث الشخصي ان لاتكون الاهالي عالة على حكومتهم بل ان يسلكوا سبل التجارة والصناعة والزراعة في أمر معايشهم حتى لايكونوا منتظرين سيب الرزق من حكومتهم والانكباب على طلب الوظائف للتعيش منها ، لان السنة في الحكومات المستبدة ان ينتظر الاولاد دائما الاعانة من أسرهم والاسر من أرباب مجالسهم وأرباب المجالس من حكومتهم . ولكن الامم الانكلوسكسونية بعكس ذلك فان أولادهم يعتمدون في تحصيل الثروة على أنفسهم ويختارون الصناعة اللائقة بهم فهذه خلاصة افكار هذا الحزب السياسي

نهاية الفساد والخراب

في احوال الدولة

زاد البلاء في السنين الاخيرة وتعسر تدوير دولاب

الحكومة مع اجهاد المأمورين أنفسهم في ذلك ، فحدث في الاذهان كدر من الامس وخوف من الغد، واحتراس من كل انسان ويأس من كل شيء ونفرة زائدة و بغض وحقد كامنان في النفوس ، وعلم المقربون انهم على وشك الانقراض ، فضاق عليهم الوقت ولزمهم الاستعجال ، فتهالكوا على ادخار الاموال واقتناء العقار، وأودع الدهاة منهم ثروتهم في مصارف أوربا وأمريكا، وتطلبوا أعلى الرتب والمناصب فنالوها واستفادوا من الحال الحاضرة بقدر ماأمكنهم. ولم يفكر الواحد منهم الا في نفسه وأولاده ثم بالاقرب فالاقرب من اسرته ، واستماتوا في سبيل الوصول الى السعادة ونفوذ الكلمة بالتقرب ، واستحوذوا على مناصب الدولة و رتبها ونياشينها والقابها ، ووجهت رتبة امراء العسكريه ورتبة بالاالعلميه على المشايخ ذوي التيجان والعمائم ،ومنحوا الراحة من الخدمة العسكريه هم ومن انتسب اليهم من الرفاعية في جميع المملكة فاصبحوا

لاينتظمون في سلكها ، فكانت هذه المنحة من غريب التناقض ، وكان اذا انصب الانعام على فرد أو أسرة انهمل كالغيث المتواصل وانصب كله في زرع ذاك الفرد أو الاسرة دون ان يفيض منه شيء على المزارع المجاورة ، ولهذا قال احد العقلاء :

أمير المؤمنين فدتك نفسي
ونفس (ابي الضلال) لها فداء
اتحييه وتقتلنا جميعاً
لعمرك ان ذا لهو البلاء
فلا والله ماهذا بعدل
ولكن انت تفعل ماتشاء

واحتكروا أوقاف الجوامع ومزارعها بل ضبطوها ضبطاً بلا حكر ، وباعوا امتيازات الامور النافعة للاجانب فاضروا الدولة بذلك اضرارا جمة وشرهت نفوسهم للعجب وتتلعت أعناقهم عظمة وكبرياء وزادبهم الحرص

والطمع حتى فقدوا جميع المزايا الانسانية فصار الواحد منهم كأنه وحش مفترس، ينقلب يوم سقوطه وابعاده عن منصب الدولة شيطانا رجيما، كما ظهر من افعال فهيم باشا وهو منفي الى بروسه الذي أهلكه الاهالي فيها ضرباً بعد إعلان الحرية

كنا أشرنا الى هذه الحالات المنكرة المكدرة، والى قرب حدوث الانقلاب في مقالة عنوانها « حكمة التاريخ » نشرتها جريدة طرابلس الشام في عددها (٥١٧) الصادر في ١٥ تموز (يوليو) سنة ١٩٠٣ بعد ان بدّل المراقب فيها وحرف كما أراد، ظنا منه أنها تخفى وربما خفيت على فطنته ودقت على فهمه ، ولكنها عندما بلغت الاستانة واطلع عليها الملدوغون صدر الامر بتعطيل الجريدة ، فكاد بركان الاستياء تنفجر منه فوهات في عدة جهات، لان بقاء الحال على ما ذكر غير ممكن في القرن العشرين ، خصوصا وان البلاد العثمانية متوسطة بين أوربا والشرق

الاوسط والاقصى . ومما زاد اختلاطنا بالعالم المتمدن تجديد السكك الحديدية وتوارد بواخر الشركات الاجنبية على ثغورنا ، ومشاهدتنا صور السينماتوغراف وسماعنا اصوات الفونوغراف ، وركوبنا الترام الكهربائي والحوافل والدراجات كل ذلك كان من دواعي اختلاط الامم وامتزاجها ، واصبحت المسافة بين الاستانة و باريس أقل من ستين ساعة بعد ان كانت تقطع في شهور وأعوام

نمت النابتة الجديدة من الشبان المتعلمين في مدارس الدولة الملكية والعسكرية أو في المدارس الاجنبية التي افتتحها الاوربيون والامريكيون في الشرق رغم منع الحكومة المسلمين من دخولها والتضييق عليهم وعلى أوليائهم في ذلك ، أو في المدارس الخصوصية التي أسسها طوائف الروم والارمن واليهود والبلغار ، فتعلمت النابتة الجديدة من الشبان والبنات اللغات الاجنبية ، وطالعوا الجرائد والكتب ووقفوا على مواضع الضعف في الدولة ،

وادركوا محل الخلل ، وصار يتخرج في كل سنة في هذه المدارس عـدد عظيم متشبعون بفكر الحرية ومتخلقون بالاخلاق الاوربية والحماسـة الوطنية . فكانوا كلهم موضع شبهة أولئك الجهال المستبدين بالامر ، فضيقوا عليهم واضطهدوا هؤلاء الشبان اضطهادات كثيرة شتى كالنفي والحبس والمراقبـة ودمور المنازل وتفتيش الاوراق فكانوا كلهم عرضة لاستبداد المستبدين ،

فلما حدث الانقلاب في ٢٤ تموز (يوليو) وانفجر في سلانيك وما جاورها من الولايات بركان الاستياء كان هؤلاء الشبان وجميع العثمانيين مساعدين ومعضدين لحزب تركيا الفتاة وجمعيـة الاتحاد والترقي ، ولذلك لم تحصل معارضة ولا مقاومة من أحد لان الجميع مستاؤن حتى المستبدين أنفسهم والمستفيدين من الحال الماضية والوزراء الذين أودعوا السجن واستردمنهم ما اغتصبوه من الاموال لان كلا منهم كان يتطلب أكثر ممـا ناله

ولو لم يحدث الانقلاب بالصورة التي ظهر فيها لحدث
بصورة أخرى بعد تبدل السلطة ولكان إذ ذاك
مدهشا دمويا

انفجار بركان الحرية

وحدوث الانقلاب في ٢٤ تموز

تسنى لجمعية الاتحاد والترقي العثمانية في سلانيك اخفاء أمرها مدة ولكن رائحتها فاحت بعد ذلك لكثرة الداخلين وصعوبة الكتم والاخفاء، فأحسّ بها جواسيس سلانيك وبعثوا بتقاريرهم الى المابين، فأرسلت الجواسيس من الاستانة ، فقررت الجمعية اعدام الذين ثبت لديها تجسسهم وخيانتهم للوطن ، وعينت فدائيين من أعضائها بالقرعة أو بالتراضي

وكان القائمقام ناظم بك قومندان مركز سلانيك يبذل مجهوده في كشف اسرار الجمعية فذهب إذ ذاك

الى الاستانة لعرض معلوماته ، ورجع منها نائلا ألفي قرش ضما على راتبه فزاد اجتهاده وتحريه ، وطلب ثانية الى الاستانة و بينا كان على أهبة السفر اذ فوجئ بضربة من أحد الضباط فذهب الى الاستانة مجروحا وحضر بعد ذلك إلى سلانيك صادق باشا وماهر باشا وأمير اللواء يوسف باشا و بعض الياورية وعدة من موظفي الملكية ، ونظموا دفترا بأسماء كثيرين من المتهمين بعضوية الجمعية ، وحبسوا ونفوا والقوا الرعب في قلوب الناس حتى كاد اليأس يستولي عليهم ، فقام في مناستر صلاح الدين بك قائمقام أركان حرب والبيكباشي نيازي بك الارناؤطي بتشكيل فرقة من العساكر الوطنية وذهبوا لناحية (رسنه) وهي في الغرب الشمالي من مدينة مناستر على مسافة ثلاثين كيلو مترا ولحق بهما كثيرون من الوطنين وأنور بك البكباشي صهر ناظم بك قومندان سلانيك وكان طلب الى الاستانة ووعد

بمكافأة كبيرة ولكنه اختار نفع وطنه على منفعته الذاتية

ثم قتل في سلانيك أحد الجواسيس فقلقت حكومة الاستانة قلقا عظيما وطلبت مفتي الالاي مصطفى افندي لتستفهم منه عن هـذه الاحوال ، وضمت الى معاشه خمس مئة قرش ! ! وبينا كان خارجا من الفندق للسفر الى الاستانة جرحه أحـد الضباط بحضور جم غفير ، وهرب الجارح من دون ان يعارضه أحد من الحاضرين ولا أخبروا عن أشكاله وصفاته ، فندبت حكومة الاستانة للسفر الى (رسنه) الفريق الاول شمسي باشا قومندان (متروبجه) فاختار من يعتمد عليهم من الضباط وتابورا من العساكر وحضر على القطار الى سلانيك ومنها إلى مناستر وذهب توا إلى إدارة التلغراف لمخابرة المابين ، فخرج عليه أحد الضباط وقتله ، وامتنع من معه من الضباط والعساكر عن الزحف على (رسنه) ومقاتلة اخوانهم

ثم قتل على هذا الوجه كثير من الجواسيس

الملكيين والعسكريين فقرر مجلس الوكلاء ارسال ثلاثين ألفا من عساكر الاناضول . ولما وصل منهم إلى سلانيك الثلاثة توابير الأوَل امتنعوا عن مقاتلة اخوانهم وانضموا اليهم أيضا ، فأحس المابين بأن سوق عسكر الاناضول الى الروملي إنماء لقوة الجمعية فأوقف ارسال بقية عساكر الاناضول الى سلانيك . ثم اجتمع في (فيرزوبك) عشرون ألفا من الارناؤط وذهب سبع مئة من رؤسائهم الى اسكوب لاعلان القانون الاساسي والحكومة المقيدة

وفي يوم الخميس ٢٣ تموز (يوليو) سنة ١٩٠٨ خرج الناس في سلانيك صباحا ووجدوا اعلانات مختومة بختم الجمعية أي جمعية الاتحاد والترقي العثمانية تدعوهم الى الاجتماع في يوم الجمعة لاعلان القانون الاساسي والحرية ، فلم يتمهلوا للغد بل اجتمعوا في ذلك النهار في ميدان أوليمبوس على الطَّوَار (الرصيف) في مدينة سلانيك وضج الجمهور قائلا إما الحرية وأما الموت ! ! . وأول من

خطب على طنف (بلكون) فندق (أوليمبوس بلاس) غالب افندي بالتركية ثم ما نويل قره صو باليهودية (الاسبانية) ثم روصو افندي بالفرنسية وسليمان افندي بالتركية وفضلي بك نجيب محرر جريدة (عصر) بالتركية وفيلوطاش بابا جورج بالرومية والتركية وترجمان المحكمة المخصوصه (فوق العادة) بالبلغاريه وفي ختامهم عادل بك رئيس البلديه بالتركيه ثم هتف الجميع « فليحي الوطن ، فلتحي الامه ، فلتحي الجمعيه ، فليحي الجيش ، الحريه أو الموت » وأعدوا في تلك الليلة مأدبه ضربت فيها الموسيقى العسكريه على الانغام المرسيليه :

Allons enfants de la patrie le jour de gloire est arrivé (1)

---

(١) هذا البيت من أبيات لحن الثورة الفرنسيه وترجمته بالعربيه ترجمه حرفيه نظما هكذا :

هلموا يا بني الوطن　　فيوم المجد قد وافى

وكانت ترجمت بالتركيـة هكذا : « قالقك أي أهل وطن شان كونلري كلدي » وفي ليلة الجمعة وردت رسالة برقيـة إلى حلمي باشا المفتش العام لولايات مكدونيه بصدور الإرادة السنية بإعادة القانون الاساسي ، فاجتمع الناس في سراي الحكومه ، وأعلنت الحريه والقانون الاساسي رسميا بحضور المفتش العام ومشير الفيلق الثاني ابراهيم باشا ، وموظفي الحكومة والبلديه واعضاء الجمعيه وابتدأ موسم الافراح والسرور.

الخلاصة وأسباب الانقلاب

بلا سفك دماء

حدث الانقلاب العثماني بلا سفك دماء ولا حصول اضطراب أو قلاقل في المملكة كما حصل عند باقي الامم من الانكليز والفرنسيين والامريكان والمجر والروس وغيرهم ، وفي ذلك قال بعض رجال السياسة :

«لا تنبت الحرية ما لم تسق بالدم» ولذلك أسباب كثيرة منها :

(١) ان الحكومة ليست مطلقة كما يظنها الناس ويسميها الافرنج (Théocratique) وانما هي مقيدة باحكام الشرع الشريف الذي يأمر بالشورى ويحض عليها كما ذكر في صدر هذه الرسالة . فالانقلاب لم يضيع حقوق السلطنة والخلافة كما ضيع انقلاب الفرنسيين وغيرهم حقوق ملوكهم المطلقة المقدسة الآلهية !! ! حتى انتصر لها فريق من الناس وقاتلوا في سبيل استرجاعها ولم يزالوا يطالبون بها في هذا القرن العشرين عصر التمدن والعلم والنور .

(٢) عدم وجود امتيازات لصنف من أصناف الامة العثمانية كما يوجد عند الفرنسيين للاشراف وللرهبان امتيازات وحقوق مشروعة على الاراضي بحسب عرفهم وشرعهم القديم، ولذلك قاتلوا عليها لما حدث الانقلاب الفرنسي وحرمهم من حقهم المشروع على زعمهم واعتقادهم، أما الانقلاب العثماني فلم يضيع لاحد حقا فان الحقوق التي

كانت على الاراضي للدره بكوات (دره بكلر «*») المعروفين عند الافرنج باسم (Féodalité) وهي في المملكة العثمانية حقوق الزعامة ألغيت بعد التنكيل بالانكشارية في عهد السلطان محمود خان ، وأعطي لاصحاب هذه الحقوق ضمانة و رواتب استوفوها مدة حياتهم ومنهم من لايزال في قيد الحياة ليومنا هذا يستوفي حقه من الخزانة في كل سنة ،ووضع أخيرا قانون الاراضي الموافق لاحكام الشرع وهو من أحسن قوانين الدولة وضعا وترتيبا كما هو معلوم عند طلبة مدارس الحقوق . فالمسلمون لا فرق في الحقوق بين الشريف منهم والوضيع ، وغير المسلمين «لهم مالنا وعليهم ماعلينا» أما الامتيازات التي وهبها السلطان محمد الفاتح

(*) يراد بكلمة (دره بكلر) في التركية أصحاب الزعامة والنفوذ الفعلى في المقاطعات وقد كانت بلاد الدولة معظمها على هذا النمط ولا سيما في الاناطول فان السلطة والنفوذ كانا في أيدي هذا الصنف من الناس

للروم وأقرهم عليها والامتيازات الاجنبية التي أنعم بها سلاطين آل عثمان على الاجانب تفضلا منهم واحسانا لا بحرب وغلبة فسيجري الاتفاق عليها بصورة حبية يرضى بها الجميع .

(٣) ان الافراد الذين عزلوا من وظائفهم وصودر ما استحوذوا عليه من الاموال المنقولة وغير المنقولة بسبب ارتكابهم واستبدادهم يعترفون بانهم ادخروا هذه الاموال الكثيرة من غير الوجوه المشروعة بل بأكل أموال الامة والدولة بالباطل ، كما يعترف الاذكياء منهم بمشروعية هذا الانقلاب ولزومه وفائدته ، وقد صرحوا بذلك وأقروا به فلا يتصور قيامهم للمطالبة بشي أو لاعادة الادارة السابقة المستبدة ، وليس لهم عصبية تساعدهم على ذلك ان هم أرادوا أو حاولوا . وإن الامة بأجمعها عرفت الحق من الباطل والنافع لها من الضار ، نعم ان الموظفين الذين خدموا مدة ثم ألغيت وظائفهم أو عزلوا منها لهم حق في طلب راتب التقاعد أو التوظيف في وظائف أخرى ،

إذ لايليق بشرف الامة ان تلقي على قارعة الطريق جما غفيرا قضوا حياتهم في خدمة الادارة السابقة ولا معاش لهم ولعيالهم غير ما كانوا يتقدونه من الرواتب ، فان هذا الانقلاب الذي بدأ بالشفقة على الاهالي المظلومين من شأنه ان يستعمل الشفقة والحنان أيضا في حق الظالمين لتتم سعادة الامة ولا يلحق بأحد ضرر ولا خسران ·

والحاصل ان الفضل في حدوث الانقلاب العثماني من دون سفك دم ولا حصول اضطراب وقلاقل في المملكة انما هو للشريعة الاسلامية وما في احكامها من العدل والمساواة في الحقوق · ولهذا كان ردالفعل أوالرجعة (Réaction) في هذا الانقلاب غير محتمل بل هو مستحيل لعدم وجود اسباب معقولة أو مشروعة تحفزاليه" بخلاف ماحدث في فرنساوأمثالها إذ كان للقائمين بردالفعل أسباب كثيرة تحملهم على القيام لاعادة الادارة السابقة ·اه

﴿ فهرس اسباب الانقلاب العثماني ﴾

صفحة

﴿ تنبيه ﴾

ان جميع الهوامش في هذه الرسالة هي من وضع مصححها ماعدا مافي (ص ١١٧) فانهامن وضع المؤلف وكذلك تفسير الكلمات التركية والفرنسية فانها بقلم المصحح ايضاً